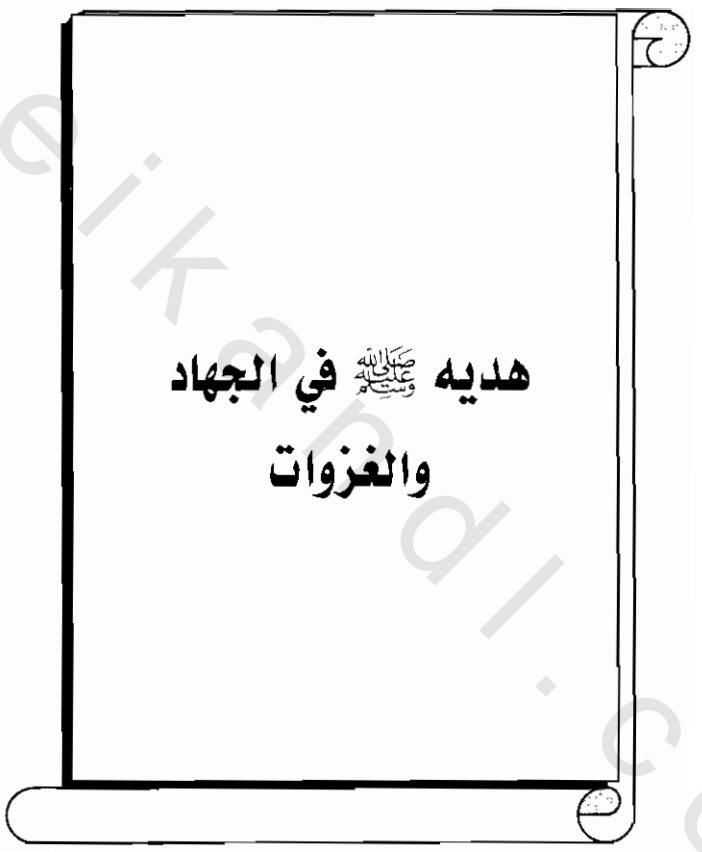

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل

فى هديه فى الجهاد والغزوات [والسرايا والبُعوث][1]

لما كان الجهاد ذِرْوَة[2] سَنَام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة، كما لهم الرفعة فى الدنيا، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه، فاستولى على أنواعه كلها، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب، والجنان، والدعوة، والبيان، والسيف، والسِّنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه، ولسانه، ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا، وأعظمهم عند الله قدرا .

وأمره الله ـ تعالى ـ بالجهاد من حين بعثه فقال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان].

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن .

وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بالحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد فى العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عددا، فهم الأعظمون عند الله قدرا .

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن يتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ من ذلك الحظ

---

(١) ليست فى ق، خ ، وأثبتناه من ك .

(٢) ذِرْوة الشىء : أعلاه .

الأوفر، وكان لنبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من ذلك أكمل الجهاد وأتمه .

ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه فى ذات الله، كما قال النبى ﷺ : «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه»[(١)] كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو فى الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها فى الله لم يمكنه جهاد عدوه فى الخارج، وكيف يمكنه جهاد عدوه، والانتصاف منه، وعدوه الذى بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه فى الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج .

فهذان عَدُوَّان قد امتحن العبد بجهادهما ، [وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده ، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ، ويُخَذِّلُه[(٢)]] ، ويرجف به ، ولا يزال يخيل له ما فى جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه جهاد[(٣)] ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[فاطر : ٦] .

والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع فى محاربته، ومجاهدته، فإنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس .

فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بلى العبد بمحاربتها فى هذه الدار، وسلطت عليه امتحانا من الله له، وابتلاء، وأعطى [الله][(٤)] العبد مددا،

---

(١) أحمد (٦/ ٢١)، وابن حبان فى صحيحه (١١/ ١٩٨)، عن فضالة بن عبيد، وعندهما : « ... والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٤٩).

(٢) فى خ : «وبينهما عدو يخذله»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٣) فى خ : « يجاهد» وما أثبتناه من ق ، ك.

(٤) ليست فى خ ، ق وما أثبتناه من ك .

وعدة ، وأعوانا ، وسلاحا لهذا الجهاد ، وأعطى أعداءه مددا ، وعدة ، وأعوانا، وسلاحا، وبَلَا أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه، ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الفرقان : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾

[محمد : ٤]

وقال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

[محمد]

فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول، والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدهم بملائكته، وقال لهم : ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوه .

وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه، وعدوهم، وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ومعصيتهم له، ثم لم يؤيسهم، ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم، ينصرهم عليهم ويظفرهم بهم، وأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يدفع عن عباده المؤمنين ما لا يدفعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم، واجتاحهم .

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قدره، فإن قوى الإيمان قويت المدافعة، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته[١]، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه، ولسانه، وجوارحه لله، فيكون كله لله وبالله لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يَعِد الأماني، ويُمنِّي الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن الهدى والتقوى، والعفة، والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعُدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه، ولسانه، ويده وماله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في حق الجهاد:

فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم، وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته، وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس، والهوى.

ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق، وحق تقاته، وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر، المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل والضعيف[٢] شيء.

وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨]. والحرج: الضيق، بل جعله واسعا يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع [كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[الحج: ٧٨].

(٢) في ك: «الضعف»، وما أثبتناه من خ، ق.

فهو يسع] [(١)] تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده فى الدين من حرج بوجه ما، قال النبى ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» [(٢)] أى: بالملة فهى حنيفية فى التوحيد سمحة فى العمل.

وقد وسع ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده غاية التوسعة فى دينه، ورزقه وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح فى الجسد، وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة.

وجعل لكل ما حرم عليهم عوضا من الحلال، أنفع لهم منه، وأطيب، وألذ، يقوم مقامه ليستغنى العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه.

وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرا قبله، ويسرا بعده، فلن يغلب عسر يسرين [(٣)]، فإذا كان هذا شأنه ـ سبحانه ـ مع عباده فكيف يكلفهم بما [(٤)] لا يسعهم فضلا عما لا يطيقونه، ولا يقدرون عليه.

فصل

إذا عرف هذا فالجهاد أربع مراتب:

جهاد النفس.

---

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) جزء من حديث رواه أحمد (٥ / ٢٦٦)، والطبرانى فى الكبير (٨ / ٢٥٧) (٧٨٦٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٨٢): «وفيه على بن يزيد الألهانى، وهو ضعيف».

(٣) الحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٢٨) وسكت عليه، وقال الذهبى فى التلخيص: «مرسل» وقد تتبع الحافظ ابن حجر طرقه فى الفتح (٨ / ٧١٣).

(٤) فى خ: «ماء»، وما أثبتناه من ق، ك.

وجهاد الشيطان .

وجهاد الكفار .

وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع مراتب ـ أيضا :

إحداها[١] : أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة فى معاشها، ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلْمه شقيت فى الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه لمن لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى، والبينات،ولا ينفعه علمه،ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم، فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السموات .

فصل

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

إحداهما : جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات، والشكوك القادحة

---

(١) فى ك ، خ : «أحدها» وما أثبتناه من ق.

فى الإيمان .

والثانية : جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات [الفاسدة][١] والشهوات .

فالجهاد الأول يكون بعُدَّة[٢] اليقين، والثانى بعُدَّة[٣] الصبر، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]، فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر، واليقين، فالصبر يدفع الشهوات، والإرادات [الفاسدة][٤]، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

فصل

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب :بالقلب، واللسان، والمال، والنفس .

وجهاد الكفار أخص[٥] باليد، وجهاد المنافقين أخص[٦] باللسان .

فصل

وأما جهاد أرباب الظلم، والمنكرات والبدع فثلاث مراتب :

الأولى : باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه .

---

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٢،٣) فى المطبوع : « بَعْدَه » ، ولا معنى لها ، وإذا كان عذر معلقى الهوامش عدم وجود مخطوطات لضبط النص ، إلا أن الآية الكريمة وما بعدها يؤكدان أن ما فى النسخة المطبوعة ناتج عن عدم الدقة فى فهم النص ، ولذا كان هذا التحريف !! وقد أغنتنا النسخ المخطوطة من الوقوع فى مثل ذلك ، ولله المنة والفضل .

(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ.

(٥، ٦) فى ك : «اختص» ، وما أثبتناه من خ ، ق .

obeikandl.com

فهذه ثلاث عشرة[١] مرتبة من الجهاد، و «من مات، ولم يغز[٢]، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شُعْبة من النفاق»[٣].

فصل

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والراجون رحمة[٤] الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[البقرة].

وكما أن الإيمان [فَرْضٌ على كل أحد، ففرضٌ[٥] عليه هجرتان فى كل وقت:

هجرة إلى الله عز وجل بالإخلاص][٦]، والتوحيد، والإنابة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق لخبره وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٧].

---

(١) فى ق: «ثلاثة عشر»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٢) فى ق: «ولم يغزو»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٣) أحمد (٢ / ٣٧٤)، ومسلم فى الإمارة (١٩١٠ / ١٥٨)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٢)، والنسائى فى الجهاد (٣٠٩٧).

(٤) فى خ: «رحمهم»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٥) فى ك: «الفرض»، وما أثبتناه من ق، خ.

(٦) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٧) أحمد (١ / ٢٥)، والبخارى فى بدء الوحى (١)، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧ / ١٥٥)، وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠١)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٧)، والنسائى فى الطهارة (٧٥)، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٢٧).

وفرض عليه جهاد نفسه فى ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصوده .

فصل

وأكمل الخلق عند الله من كمَّل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون فى منازلهم عند الله تفاوتهم فى مراتب الجهاد، ولهذا كان أكمل الخلق، وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله، فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد فى الله حق جهاده، وشرع فى الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله ـ عز وجل ـ فإنه لما أنزل الله عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾[المدثر] شمر عن ساق الدعوة، وقام فى ذات الله أتم القيام ودعا إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهرا[(١)] .

ولما نزل عليه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[الحجر : ٩٤] صدع بأمر الله، لا تأخذه فى الله[(٢)] لومة لائم، فدعا إلى الله الكبير و الصغير، والحر، والعبد، والذكر، والأنثى، والأحمر، والأسود، والجن، والإنس .

ولما صدع بأمر الله، وصرح لقومه بالدعوة، وبادأهم[(٣)] بسب آلهتهم، وعيب دينهم اشتد أذاهم له، [ولمن استجاب له][(٤)] من أصحابه، ونالوهم بأنواع الأذى، وهذه سنة الله ـ عز وجل ـ فى خلقه، كما قال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ

---

(١) فى ك : «جهارًا» ، وما أثبتناه من ق ، خ.
(٢) فى ك : «فيه» ، وما أثبتناه من ق، خ.
(٣) فى خ : «ناداهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك.
(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

مِن قَبْلِكَ ﴾[فصلت : ٤٣]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾[الأنعام : ١١٢]، وقال : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الذاريات] .

فعزّى ـ سبحانه ـ نبيه بذلك، وأنّ له أسوة بمن تقدمه من المرسلين، وعزّى أتباعه بقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة] .

وقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات، وما تضمنته من العبر وكنوز الحِكَم، فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا، وإما ألا يقول ذلك بل يستمر على السيئات[1] والكفر، فمن قال : آمنا امتحنه ربه وابتلاه، وفتنه،

(١) في ك : «الشقاق» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

والفتنة : الابتلاء والاختبار؛ ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل : آمنا، فلا يحسب أنه يعجز الله، ويفوته، ويسبقه، فإنه إنما يطوى [١] المراحل فى يديه .

وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تطوى فى يديه المراحل [٢]

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم، وآذوه فابتلى بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم عوقب فى الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألما، وأدوم من ألم أتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان .

لكن المؤمن يحصل له [الألم] [٣] فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير فى الألم الدائم .

وسئل الشافعى : أيما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يبتلى؟ فقال : لا يُمكَّن حتى يبتلى، والله ـ عز وجل ـ ابتلى أولى العزم من رسله فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما تفاوت أهل الآلام فى العقول، فأعقلهم من باع ألما مستمرا [عظيما] [٤] بألم منقطع يسير، وأسفههم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر .

فإن قيل :كيف يختار العاقل هذا ؟

قيل: الحامل له على هذا النقدُ والنسيئةُ.

والنفس موكلة بحُبِّ العاجِلِ

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[القيامة]، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ

(١) فى ك : «تطوى» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٢) فى ك: «المراحلا»، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٣،٤)ليست فى ق ، ك وما أثبتناه من خ .

ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[الإنسان] .

وهذا يحصل لكل أحد، فإن الإنسان مدنى بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وإن وافقهم حصل له [(١)] الأذى والعذاب تارة منهم، وتارة من غيرهم، كمن عنده دِين وتُقًى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم [(٢)]، أو سكت عنهم سلم من شرهم فى الابتداء، ثم يتسلطون عليه [(٣)] بالإهانة، والأذى أضعاف ما كان [(٤)] يخافه ابتداء، لو أنكر عليهم، وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان، ويعاقب على يد غيرهم .

فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت [عائشة] [(٥)] أم المؤمنين لمعاوية : من أرضى الله بِسَخَط الناس كفاه الله مُؤْنَة الناس، ومن [(٦)] أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا [(٧)] .

ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرا، فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربا من عقوبتهم، فمن هداه الله، وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، كما كانت الرسل وأتباعهم،

---

(١) فى ق: «لهم» ، وما أثبتناه من خ ، ك.
(٢) فى خ : «وافقه»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٣) فى خ : «عليهم» ، وما أثبتناه من ق ، ك.
(٤) فى ق : «كانوا»، وما أثبتناه من خ ، ك .
(٥) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٦) فى ك : «ولم» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٧) الترمذى فى الزهد (٢٤١٤)، وابن حبان فى الإحسان (٢٧٦، ٢٧٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٣١١) .

كالمهاجرين، والأنصار، ومن ابتلى من العلماء، والعباد، وصالحى الولاة، والتجار، وغيرهم .

ولما كان الألم لا مخلص منه البتة عزّى [الله] [١] ـ سبحانه ـ من اختار الألم اليسير المنقطع، على [الألم] [٢] العظيم المستمر بقوله : ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]، فضرب لمدة هذا الألم أجلا لابد أن يأتى، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله، وفى مرضاته، وتكون لذته، وسروره، وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم فى الله، ولله .

وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقاء ربه [٣]؛ ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه وواليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم، والإحساس به، ولهذا سأل النبى ﷺ ربه الشوق إلى لقائه، فقال فى الدعاء الذى رواه أحمد، وابن حبان :

«اللهم إنى أسألك بعِلْمِك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى إذا كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى، وأسألك خشيتك فى الغيب، والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر، والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» [٤] .

فالشوق يحمل المشتاق على الجد فى السير إلى محبوبه، ويقرب عليه الطريق،

(١، ٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٣) فى ك : «لقائه»، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٤) أحمد (٤ / ٢٦٤)، وابن حبان فى الموارد (٥٠٩)، وصححه الألبانى .

ويطوى له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعمها الله على عبده، ولكن لهذه النعمة أعمال وأقوال هما السبب الذى تنال به، والله ـ سبحانه ـ سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن[١] يصلح لهذه النعمة، ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليها، فتصلح عنده هذه النعمة، كما قال[٢] تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ .

ثم عزَّاهم ـ تعالى ـ بعزاء آخر، وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غنى عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه ـ سبحانه ـ ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم، وإيمانهم فى زمرة الصالحين .

ثم أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس له، وهى أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه، والألم الذى لا بد أن تناله الرسل، وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك فى فراره منه، وتركه السبب الذى ناله به كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان .

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب[٣]، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم، ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبِنَ كل الغَبْنِ إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه، قال : إنى كنت

---

(١) فى ك : «لمن» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٢) فى ك : «كقوله» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٣) فى ك : «قريب» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

معكم والله عليم[١] بما انطوى عليه صدره من النفاق .

والمقصود : إن الله ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس، ويبتليها، فيُظْهِر[٢] [بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته، وكرامته، ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التى تصلح له، ويخلصها بِكِير الامتحان كالذهب الذى لا يصفو أو يخلص من غشه إلا بالامتحان][٣]؛ إذ النفوس[٤] فى الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج فى هذه الدار، وإلا ففى كير جهنم، فإذا هذب العبد ونُقِّىَ أذن له فى دخول الجنة .

فصل

ولما دعا ﷺ إلى الله ـ عز وجل ـ استجاب له عباد الله من كل قبيلة، فكان حائز قَصْب سبقهم صِدِّيق الأمة، وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر ﷺ، فآزره فى دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرة، فاستجاب لأبى بكر : عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبى وقاص .

وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صدِّيقة النساء : خديجة بنت خُوَيْلِد، وقامت بأعباء الصدِّيقية وقال لها : «لقد خَشِيتُ على نَفْسِى»، فقالت : أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا[٥]، ثم استدلت بما فيه من الصفات، والأخلاق، والشيم على أن من كان كذلك

---

(١) فى ك : «أعلم» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٢) فى ك : «فيطهر»، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٣) ليس فى ق ، وما أثبتناه من خ، ك .
(٤) فى ك : «النفس»، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٥) البخارى فى بدء الوحى (٣)، ومسلم فى الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .

لا يخزى أبدا .

فعلمت بكمال عقلها، وفطرتها أن الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله ـ تعالى ـ وتأييده، وإحسانه، ولا تناسب الخزى، والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركبه الله على أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق، والأعمال إنما يليق به كرامته، وإتمام نعمته عليه، ومن ركبه على أقبح الصفات، وأسوأ الأخلاق والأعمال، إنما يليق به ما يناسبها .

وبهذا العقل والصدِّيقية استحقت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم[١] .

فصل

وبادر إلى الإسلام على بن أبى طالب ﷺ، [وكان][٢] ابن ثمان سنين، وقيل : أكثر من ذلك، وكان فى كفالة رسول الله ﷺ، أخذه من عمه [أبى طالب][٣] إعانة له فى سَنَة مَحْلٍ .

وبادر زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلاما لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها، وقدم أبوه وعمه فى فدائه، فسألا عن النبى ﷺ، فقيل : هو فى المسجد فدخلا عليه، فقالا : يا بن عبد المطلب، يا بن هاشم، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، وجيرانه، تفكون العانى، وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عندك[٤] . فامنن علينا، وأحسن إلينا فى فدائه، قال : «من هو؟»، قالوا : زيد بن حارثة، فقال

---

(١) أحمد (٢ / ٢٣١) ، والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٢٠)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣٢/ ٧١) .

(٢،٣) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٤) فى ك : «عبدك»، وما أثبتناه من خ ، ق .

رسول الله ﷺ : «فهلا غير ذلك»، قالوا : ما هو؟ قال : «أدعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارنى، فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا» قالا : قد زددتنا على النَّصَفِ، وأحسنت، فدعاه فقال : «هل تعرف هؤلاء؟» قال : نعم، قال: «من هذا؟» قال : هذا أبى، وهذا عمى، قال : «فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما»، قال : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت منى مكان الأب والعم، فقالا : ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وعلى أهل بيتك؟! قال : نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : «أشهدكم أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه»، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما فانصرفا، ودعى زيد بن محمد حتى جاء [الله] [(١)]، بالإسلام : فنزلت : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٥]، فدعى [من] [(٢)] يومئذ : زيد بن حارثة[(٣)].

قال معمر فى جامعه، عن الزهرى : ما علمنا أحدا أسلم قبل زيد بن حارثة[(٤)]، وهو الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه وأسلم القس ورقة بن نوفل، وتمنى أن يكون جذعا إذ يخرج رسول الله ﷺ قومه[(٥)].

وفى جامع الترمذى : إن رسول الله ﷺ رآه فى المنام فى هيئة حسنة، وفى حديث آخر : أنه رأى عليه ثياب بياض[(٦)].

ودخل الناس فى الدين واحدا بعد واحد، وقريش لا تنكر ذلك حتى بادأهم

---

(١) ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .

(٢) ليست فى ق ، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٧٨٢)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٥ / ٦٢)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٩)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٣٩٧) .

(٤) عبد الرزاق فى المصنف فى المغازى (٥ / ٣٢٥) .

(٥) البخارى فى بدء الوحى (٣)، ومسلم فى الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .

(٦) الترمذى فى الرؤيا (٢٢٨٨)، وقال : «حديث غريب»، وضعفه الألبانى .

بعيب دينهم وسب آلهتهم، وأنها لا تضر ولا تنفع، فحينئذ شمروا له، ولأصحابه عن ساق العداوة، فحمى الله رسوله بعمه أبى طالب؛ لأنه كان شريفا معظما فى قريش، مطاعا فى أهل مكة، لا يتجاسرون على مكاشفته بشىء من الأذى .

وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه لما فى ذلك من المصالح التى تبدو لمن تأملها .

وأما أصحابه فمن كان له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وسائرهم تصدوا له بالأذى والعذاب، منهم : عمار بن ياسر وأمه [سمية] [(١)]، وأهل بيته عذبوا فى الله، وكان رسول الله ﷺ إذا مر بهم، وهم يعذبون يقول : «صبرا يا آل ياسر [(٢)] فإن موعدكم الجنة» [(٣)] .

ومنهم بلال بن رباح، فإنه عذب فى الله أشد العذاب، فهان على قومه، وهانت عليه نفسه فى الله، وكان كلما اشتد به العذاب يقول : أحد ،أحد، فيمر به ورقة بن نوفل، فيقول : إى والله يا بلال أحد أحد، أما ـ والله ـ لئن [(٤)] قتلتموه لأتخذنه حنانا [(٥)] .

---

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ.

(٢) فى ق: «آل يا أنس»، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٣) سيرة ابن إسحاق (١٧٢)، (٢٣٩)، ومجمع الزوائد للهيثمى (٩ / ٢٩٦)، وقال : «رواه الطبرانى ورجاله ثقات» .

(٤) فى ك : «إن» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة (٣ / ٦٣٤)، وعزاه الحافظ ابن حجر للزبير بن بكار، وقال : «وهذا مرسل جيد»، وهذا يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبى ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال .

والجمع بين هذا الحديث وبين حديث عائشة الذى فى الصحيحين، والذى فى آخره من رواية البخارى (٣) : ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى . أى: أن هذا كان قبل أن يشتهر الإسلام، ويؤمر النبى ﷺ بالجهاد .

وقوله : «لأتخذنّه حنانًا» قال ابن الأثير : «الحَنَان : الرَّحْمة والعطف، أراد : لأجعلن قبره موضع حنان، أى : مَظنّة من رحمة الله، فأتمسّح به مُتبرّكا كما يُتمسّح بقبور الصالحين الذين قتلوا فى سبيل الله من الأمم الماضية، فيرجع ذلك عارًا عليكم وسُبّة عند الناس . وكان ورقة على دين عيسى عليه السلام، وهَلَك=

فصل

ولما اشتد أذى المشركين على من آمن،وفُتِن منهم من فتن حتى يقولوا لأحدهم: اللات إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم، وحتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون : وهذا إلهك من دون الله، فيقول : نعم، ومر عدو الله أبو جهل بسُمَيَّة أم عمار بن ياسر، وهى تعذب، وزوجها، وابنها، فطعنها بحربة فى فرجها فقتلها .

كان الصديق إذا مر بأحد من العبيد يعذب اشتراه منهم، وأعتقه، منهم : بلال، وعامر بن فُهَيْرَة، وأم عُبَيْس، وزِنِّيرَة، والنهدية، وابنتها[١]، وجارية لبنى عَدِيٍّ كان عمر يعذبها على الإسلام قبل إسلامه، وقال له أبوه : يا بنى، أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أعتقت قوما جُلْدًا يمنعونك[٢]، فقال له أبو بكر ﷺ : إنى أريد ما أريد .

فلما اشتد البلاء أذن الله ـ سبحانه ـ لهم بالهجرة[٣] الأولى إلى أرض الحبشة، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ .

وكان أهل هذه الهجرة الأولى اثنى عشر رجلا، وأربع نسوة : عثمان، وامرأته، وأبو حذيفة، وامرأته، سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة، وامرأته أم سلمة [هند بنت أبى أمية][٤]، والزبير [بن العوام، ومصعب بن عمير][٥]، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبى حَثْمَة، وأبو سَبْرَة بن أبى رُهْم، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود، خرجوا متسللين

= قُبَيْل مَبْعث النبى ﷺ ؛ لأنه قال للنبى ﷺ : إن يدركنى يَوْمُك لأنصرنك نصرًا مُؤَزَّرًا . وفى هذا نظر؛ فإن بلالاً ما عُذِّب إلا بعد أن أسلم» . النهاية فى غريب الحديث (مادة : حنن) .

(١) فى خ : «وابنها»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) فى خ : «يمنعوك» ، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٣) فى ق : «فى الهجرة» ، وما أثبتناه من خ ، ك.

(٤، ٥) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ.

سرًّا، فوفق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملوهم فيها إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم فى رجب من السنة الخامسة من المبعث .

وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاؤوا البحر فلم يدركوا منهم أحدا .

ثم بلغهم أن قريشا قد كفوا عن النبى ﷺ فرجعوا، فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار بلغهم أن قريشا أشد ما كانوا عداوة لرسول الله ﷺ، فدخل من دخل منهم بجوار، وفى تلك المرة دخل ابن مسعود فسلَّم على النبى ﷺ وهو فى الصلاة فلم يرد عليه، فتعاظم ذلك على ابن مسعود حتى قال له النبى ﷺ : «إن الله قد أحدث من أمره ألا تَكَلَّمُوا فى الصلاة»[(١)] هذا هو الصواب .

وزعم ابن سعد، وجماعة أن ابن مسعود لم يدخل، وأنه رجع إلى الحبشة حتى قدم فى المرة الثانية إلى المدينة مع من قدم، وَرُدَّ هذا بأن ابن مسعود [قد] شهد بدرا، وأجهز على أبى جهل، وأصحاب هذه الهجرة إنما قدموا المدينة مع جعفر [بن أبى طالب][(٢)]، وأصحابه بعد بدر بأربع سنين، أو خمس .

قالوا : فإن قيل : بل هذا الذى ذكره ابن سعد يوافق قول زيد بن أرقم : كنا نَتكلَّم فى الصلاة يُكَلِّم الرجل صاحبَه حتى نزلت : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] فأمرنا بالسكوت،ونهينا عن الكلام[(٣)]، وزيد بن أرقم من الأنصار، والسورة مدنية، وحينئذ فابن مسعود سلم عليه لما قدم وهو فى الصلاة، فلم يرد عليه حين[(٤)]

---

(١) أبو داود فى الصلاة (٩٢٤) واللفظ له، ورواه البخارى فى العمل فى الصلاة (١١٩٩)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٨ / ٣٤) .

(٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٣) البخارى فى العمل فى الصلاة (١٢٠٠)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٩ / ٣٥)، وأبو داود فى الصلاة (٩٤٩)، والترمذى فى أبواب الصلاة (٤٠٥)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٤٠٧) .

(٤) فى خ : «حتى» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

سلَّم، وأعلمه بتحريم الكلام، فاتفق حديثه وحديث زيد بن أرقم .

قيل : يبطل هذا شهود ابن مسعود بدرا، وأهل الهجرة الثانية إنما قدموا عام خيبر مع جعفر وأصحابه، ولو كان ابن مسعود ممن قدم قبل ذلك لكان لقدومه ذكر، ولم يذكر أحد قدوم مهاجرى الحبشة إلا فى القَدْمَة الأولى بمكة، والثانية عام خيبر مع جعفر، فمتى قدم ابن مسعود فى غير هاتين المرتين، ومع من؟

وبنحو الذى قلنا فى ذلك، قال ابن إسحاق قال : وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة فأقبلوا، فلما بلغهم أن إسلام أهل مكة كان باطلا لم يدخل منهم أحد إلا بجوار، أو مستخفيا وكان ممن قدم منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة فشهد بدرا، وأحدا، فذكر منهم عبد الله بن مسعود .

فإن قيل : فما تصنعون بحديث زيد بن أرقم؟

قيل : قد أجيب عنه بجوابين :

أحدهما : أن يكون النهى عنه قد ثبت بمكة ثم أذن فيه بالمدينة ثم نهى عنه .

والثانى : إن زيد بن أرقم كان من صغار الصحابة، وكان هو وجماعة يتكلمون فى الصلاة على عادتهم، ولم يبلغهم النهى، فلما بلغهم انتهوا، وزيد لم يخبر عن جماعة المسلمين كلهم بأنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة إلى حين نزول هذه الآية، ولو قدر أنه أخبر بذلك لكان وَهْمًا منه[1] .

ثم اشتد البلاء من قريش على من قدم من مهاجرى الحبشة، وغيرهم، وسَطَتْ[2] بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدا، فأذن لهم رسول الله ﷺ فى

---

(١) انظر: هذه المسألة باستفاضة للإمام الشوكانى فى « نيل الأوطار » فى كتاب الصلاة، باب: النهى عن الكلام فى الصلاة عند شرحه لحديث رقم (٨٢٢) من طبعة دار الوفاء بتحقيقنا .

(٢) السَّطْوَة : البَطْش بشدّة : والفعل سطا .

الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكان خروجهم الثانى أشق عليهم، وأصعب، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا فى هذه المرة، ونالوهم بالأذى، وصعب عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جوار[(١)] لهم .

فكان عدة من خرج فى هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا إن كان فيهم عمار بن ياسر، فإنه يشك فيه، قاله ابن إسحاق، ومن النساء تسع عشرة امرأة .

قلت : قد ذكر فى هذه الهجرة الثانية عثمان بن عفان، وجماعة ممن شهد بدرا، فإما أن يكون هذا وَهْما، وإما أن يكون لهم قدمة أخرى قبل بدر فيكون لهم ثلاث قدمات : قَدْمَة قبل الهجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عام خيبر، وكذلك[(٢)] قال ابن سعد[(٣)]، وغيره : إنهم لما سمعوا مهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا، ومن النساء ثمانى نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدرا منهم أربعة[(٤)] وعشرون رجلا .

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، كتب رسول الله ﷺ كتابا إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام، وبعث به[(٥)] مع عمرو بن أمية الضَّمْرِىّ، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم، وقال : لو قدرت أن آتيه لآتينه[(٦)] .

وكتب إليه أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر هناك، ومات فزوجه النجاشى إياها، وأصدقها عنه أربعمائة [دينار][(٧)]، وكان الذى ولى تزويجها خالد بن سعيد بن

---

(١) فى خ : «جواره»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٢) فى خ : «ولذلك»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٣) فى ك : «مسعود»، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٤) فى ك : «سبعة» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٥) فى ك : «هذا» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (١ / ١٩٨، ١٩٩) .
(٧) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

العاص[١] .

وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه من بقى عنده من أصحابه، ويحملهم ففعل، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى، فقدموا على رسول الله ﷺ بخيبر فوجدوه قد فتحها، فكَلَّم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوهم فى سُهْمانهم، ففعلوا[٢] .

وعلى هذا فيزول الإشكال الذى بين[٣] حديث ابن مسعود، وزيد بن أرقم، ويكون ابن مسعود قدم فى المرة الوسطى بعد الهجرة قبل بدر إلى المدينة، وسلم عليه حينئذ فلم يرد عليه، وكان العهد حديثا بتحريم الكلام كما قال زيد بن أرقم، ويكون تحريم الكلام بالمدينة لا بمكة، وهذا أنسب بالنسخ الذى وقع فى الصلاة، والتغيير بعد الهجرة، كجعلها أربعا بعد أن كانت ركعتين، ووجوب الاجتماع لها .

فإن قيل : ما أحسنه مِنْ جمع، وأبينه[٤] لولا أن محمد بن إسحاق قد قال : ما حكيتم عنه أن ابن مسعود أقام بمكة بعد رجوعه من الحبشة حتى هاجر إلى المدينة، وشهد بدرا، وهذا يدفع ما ذكر .

قيل : إن كان محمد بن إسحاق قد قال هذا فقد قال محمد بن سعد فى طبقاته : إن ابن مسعود مكث يسيرا بعد مقدمه، ثم رجع إلى أرض الحبشة، وهذا هو الأظهر؛ لأن ابن مسعود لم يكن له بمكة من يحميه، وما حكاه ابن سعد قد تضمن زيادة أمر خفى على ابن إسحاق، وابن إسحاق لم يذكر من حدثه، ومحمد بن سعد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١ / ١٩٨)، وأبو داود فى النكاح (٢٠٨٦)، والنسائى فى النكاح (٣٣٥٠)، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٨٤)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٠٢ / ١٦٩)، وأبو داود فى الجهاد (٢٧٢٥)، والترمذى فى السير (١٥٥٩) .

(٣) فى ك : «فى» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

(٤) فى ك : «أثبته» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

أسند ما حكاه إلى المطلب بن عبد الله بن حَنْطَب، فاتفقت الأحاديث، وصدق بعضها بعضا، وزال عنها الإشكال، ولله الحمد والمنة .

وقد ذكر ابن إسحاق فى هذه الهجرة إلى الحبشة أبا موسى الأشعرى عبد الله بن قيس،وقد أنكر ذلك عليه أهل السير، منهم محمد بن عمر الواقدى، وغيره، وقالوا : كيف يخفى ذلك على ابن إسحاق، أو على من دونه؟

قلت : وليس ذلك مما يخفى على من هو دون محمد بن إسحاق فضلا عنه، وإنما نشأ الوهم أن أبا موسى هاجر من اليمن إلى أرض الحبشة، إلى عند جعفر، وأصحابه لما سمع بهم، ثم قدم معهم إلى رسول الله ﷺ بخيبر، كما جاء مصرحا به فى الصحيح، فعد ذلك ابن إسحاق لأبى موسى هجرة، ولم يقل : إنه هاجر من مكة إلى أرض الحبشة لينكر عليه .

فصل

فانحاز المهاجرون إلى مملكة أَصْحَمَة النجاشى آمنين، فلما علمت قريش بذلك بعثت فى أثرهم عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بهدايا، وتحف من بلدهم إلى النجاشى؛ ليردهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وتشفعوا إليه بعظماء جنده فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فَوَشَوْا إليه : إن هؤلاء يقولون فى عيسى قولا عظيما، يقولون : إنه عبد [الله] [(١)] .

فاستدعى المهاجرين [(٢)] إلى مجلسه ومُقَدَّمهم جعفر بن أبى طالب، فلما أرادوا

---

(١)ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .

(٢)فى خ : «المهاجرون»، وما أثبتناه من ق ، ك .

الدخول عليه قال جعفر : يستأذن عليك حزب الله، فقال للآذن : قل له يعيد استئذانه، فأعاده عليه .

فلما دخلوا عليه قال : ما تقولون فى عيسى؟ فتلا عليه جعفر صدرا من سورة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ فأخذ النجاشى عودا من الأرض فقال : ما زاد عيسى على هذا ولا هذا العود، فتناخرت بطارقته عنده، فقال : وإن نخرتم، وإن نخرتم، ثم قال : اذهبوا فأنتم سُيُوم بأرضى من سبَّكم غرم، والسُّيوم بلسانهم : الآمنون، وقال للرسولين[1] : لو أعطيتمونى دَبْرًا من ذهب، يقول : جبلا من ذهب ما أسلمتهم إليكما، ثم أمر فَرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين[2] .

فصل

ثم أسلم حمزة عمه، وجماعة كثيرون، وفشا الإسلام، فلما رأت قريش أمر رسول الله ﷺ يعلو ويتزايد، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم، وبنى عبد المطلب، ابنى عبد مناف أن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها فى سقف الكعبة .

يقال : كتبها منصور بن عكرمة، وعامر بن هاشم، ويقال : النضر بن الحارث، والصحيح : أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده .

---

(١) فى ك : «للرسول» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

(٢) أحمد (١ / ٢٠٢، ٢٠٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٧٤٠) : «إسناده صحيح»، وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٢٧ ـ ٣٠) : «رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» . والسيرة النبوية لابن هشام (١ / ٣٦٠ ـ ٣٦٤) .

وقوله : «فتناخرت» : أى : تكلَّمت، وكأنه كلام مع غَضَب ونُفُور .

فانحاز بنو هاشم، وبنو المطلب مؤمنهم، وكافرهم، إلا أبا لهب فإنه ظَاهَر قريشا على رسول الله ﷺ، وبنى هاشم، وبنى المطلب، وحبس رسول الله ﷺ، ومن معه فى الشِّعب، شِعْب أبى طالب، ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة .

وعُلِّقت الصحيفة فى جوف الكعبة، وبقوا محبوسين، محصورين، مضيقا عليهم جدًّا، مقطوعا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين، حتى بلغهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب، وهناك عمل أبو طالب قصيدته[١] اللامية المشهورة[٢] :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا [عقوبة شر عاجلا غير آجل][٣]

وكانت قريش فى ذلك بين راض وكاره، فسعى فى نقض الصحيفة بعض من كان كارها لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك، مشى فى ذلك إلى المُطعِم بن عدى، وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك .

ثم أطلع الله رسوله ﷺ على أمر صحيفتهم[٤] ، وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جَوْر، وقطيعة، وظلم، إلا ذكر الله ـ عز وجل ـ فأخبر بذلك عمه فخرج إلى قريش، فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا، وكذا، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا، وظلمنا .

قالوا : قد أنصفت، فأنزلوا الصحيفة، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ ازدادوا كفرا إلى كفرهم، وخرج رسول الله ﷺ ، ومن معه من الشِّعْب، قال ابن

---

(١) فى خ : «قصيدة»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) بعدها فى «ط» : «أولها» وهذا خطأ، فهذا البيت ترتيبه فى القصيدة الثامن والخمسون . انظر : سيرة ابن هشام ١ / ٢٧٢ ـ ٢٨٠ .

(٣) ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .

(٤) فى ك : «الصحيفة»، وما أثبتناه من خ ، ق .

عبدالبر : بعد عشرة أعوام من المبعث، قال: ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر، وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام، وقيل : غير ذلك[١] .

فصل

فلما نقضت الصحيفة وافق موت خديجة وموت أبى طالب وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه وكاشفوه بالأذى .

فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف رجاء أن يُؤْووه، وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فلم ير من يؤوى، ولم ير ناصرا، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه، وكلمه، فقالوا : اخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سِماطَيْن[٢] ، وجعلوا يرمونه بالحجارة، حتى دميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج فى رأسه، فانصرف راجعا من الطائف إلى مكة محزونا .

وفى مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف : «اللهم إليك أشكو[٣] ضَعْف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، [يا أرحم الراحمين][٤] أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تَكِلَنى؟ إلى بعيد يَتجهَّمنى[٥]؟ أو إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب عَلَىَّ فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور

---

(١) انظر: خبر الصحيفة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥ ـ ٨)، وطبقات ابن سعد (١ / ١٦٣، ١٦٤) .
(٢) أى : صَفّيْن . واحدتها سِمَاط .
(٣) فى ك : «اللهم إنى أشكو إليك» ، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٥) فى ق : «يتهجمنى»، وما أثبتناه من خ ، ك .

وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عَلَىَّ غضبك، أو أن ينزل بى سخطك، لك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

فأرسل ربه ـ تبارك وتعالى ـ إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هى بينهما، فقال: «[لا][(٢)] بل أستأنى بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا»[(٣)].

فلما نزل بنخلة فى مرجعه قام يصلى من الليل فصرف الله إليه نفرًا من الجن، فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف][(٤)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٩)، والطبرانى فى الكبير (٢٥/ ٣٤٦)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٣٨): «رواه الطبرانى وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات».

(٢) ليست فى خ، ق، وما أثبتناه من ك.

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٥ / ١١١).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٦٩، ٧٠)، وانظر البخارى فى التفسير (٤٩٢١)، ومسلم فى الصلاة (٤٤٩ / ١٤٩).

قلت: وقصة استماع الجن للنبى ﷺ حين رجع من الطائف فيها نظر. فهناك من قال: إنها وقعت فى ابتداء الدعوة قبل خروجه إلى الطائف بسنتين، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ / ٦٧٠): «ذكر ابن إسحاق وابن سعد أن ذلك كان فى ذى القعدة سنة عشر من المبعث لما خرج النبى ﷺ إلى الطائف ثم رجع منها، ويؤيده قوله فى حديث: «إن الجن رأوه يصلى بأصحابه صلاة الفجر».

والصلاة المفروضة إنما شرعت ليلة الإسراء، والإسراء كان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث فتكون القصة بعد الإسراء، لكنه مشكل من جهة أخرى؛ لأن محصل ما فى الصحيح كما تقدم فى بدء الخلق، وما ذكره ابن إسحاق أنه ﷺ لما خرج إلى الطائف لم يكن معه من أصحابه إلا زيد بن حارثة، =

وأقام بنخلة أياما، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشا فقال : «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجا، ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه» .

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلا من خزاعة إلى مُطْعِم بن عدى : أَدْخُلُ فى جوارك؟ فقال : نعم . ودعا بنيه، وقومه، فقال : البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أَجَرْتُ محمدا .

فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

فصل

ثم أُسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبا على البراق صحبه جبريل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماما[1]، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

وقد قيل : إنه نزل ببيت لحم، وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته[2]، وأراه الله أرواح السعداء من بنيه عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره .

= وهنا قال : إنه انطلق فى طائفة من أصحابه، فلعلها كانت وجهة أخرى، ويمكن الجمع بأنه لما رجع لاقاه بعض أصحابه فى أثناء الطريق فرافقوه» .

(١) مسلم فى الإيمان (١٧٢ / ٢٧٨)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٤٨٠) .

(٢) فى خ : «وأقروا بنبوته»، وما أثبتناه من ق ، ك .

ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم فلقيهما، وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف الصديق فسلم عليه، [فرد عليه][(١)]، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فلقى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى [بن عمران][(٢)]، فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى [موسى][(٣)]، فقيل له : ما يبكيك؟ فقال : أبكى أنَّ غلاما بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى .

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار ـ جل جلاله ـ فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى فقال له : بم أمرت؟ قال : بخمسين صلاة، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن نعم إن شئت .

فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وهو فى مكانه ـ هذا لفظ

---

(١) ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .
(٢ ، ٣) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

البخارى، فى صحيحه، فى بعض الطرق ـ فوضع عنه عشرا، ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فلم يزل يتردد بين موسى وبين ربه ـ تبارك وتعالى ـ حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع، وسؤال التخفيف فقال له : قد استحييت من ربى ولكن أرضى وأسلِّم، فلما نفد نادى مناد : قد أمضيت فريضتى، وخففت عن عبادى[(١)] .

واختلف الصحابة : هل رأى ربه تلك الليلة، أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده[(٢)] .

وصح عن عائشة، وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا : إن قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [النجم] إنما هو جبريل[(٣)] .

وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ فقال : «نور أنى أراه»، أى : حال بينى وبين رؤيته النور كما قال فى اللفظ الآخر : «رأيت نورا»[(٤)] .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

---

(١) البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم فى الإيمان (١٦٤ / ٢٦٤)، والنسائى فى الصلاة (٤٤٨)، وأحمد (٤ / ٢٠٨، ٢١٠) .

قلت : ولا يخفى ما فى قوله : « فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى » من التشبيه والتمثيل الذى تتنزه عنه الحق تبارك وتعالى ، وقد فات المصنف – رحمه الله – التعليق على هذا ، ولذلك نشير إلى أنه قد نقل الحافظ ابن حجر – عند شرحه للحديث فى الفتح – قول التدلّى للجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير ، من تقدم منهم ومن تأخر » ، وقد ذكر الحافظ وغيره أنها من زيادات شريك بن عبد الله بن أبى نمر فى إحدى طرق الحديث من جهته ، وهى من التى تفرد بها . راجع – لمزيد من التفصيل – فتح البارى لابن حجر ، وكذا الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النجم] فى بيان تفسير ما وقع فى هذه الأية وتخريجه، حتى لا يظن ظان بأن القرآن جاء موافقا لما فى الحديث .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٧٦ / ٢٨٤، ٢٨٥)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٨٠، ٣٢٨١) .

(٣) حديث عائشة أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٣٤)،ومسلم فى الإيمان (١٧٧ / ٢٨٧)، وحديث ابن مسعود أخرجه البخارى فى التفسير (٤٨٥٧)، ومسلم فى الإيمان (١٧٤ / ٢٨٠) .

(٤) مسلم فى الإيمان (١٧٨ / ٢٩١)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٨٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس : إنه رآه مناقضا لهذا، ولا قوله : رآه بفؤاده، وقد صح عنه أنه قال : «رأيت ربى تبارك وتعالى»[(١)]، ولكن لم يكن هذا فى الإسراء، ولكن كان بالمدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ تلك الليلة فى منامه .

وعلى هذا بنى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ وقال : نعم رآه، [فإن][(٢)] رؤيا الأنبياء حق، ولابد، ولكن لم يقل أحمد : إنه رآه بعينى رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وَهَم عليه، ولكن مرة قال : رآه، ومرة قال : رآه بفؤاده، فَحُكِيتَ عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه : أنه رآه بعين رأسه، وهذه نصوصه موجودة ليس فيها ذلك .

وأما قول ابن عباس:أنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى :﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [النجم]، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [النجم]، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئى جبريل، رآه مرتين فى صورته التى خُلِقَ عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد فى قوله : رآه بفؤاده، والله أعلم .

وأما قوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم] فهو غير الدنو والتدلى فى قصة الإسراء، فإن الذى فى «سورة النجم» هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم]، وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٣٣)، وأحمد (١ / ٣٦٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٤٨٤) : إسناده صحيح، وصححه الألبانى .

(٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

[النجم]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وهو ذو المرة[١]، أى : القوة، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى، وهو الذى دنى فتدلى، فكان من محمد ﷺ قاب[٢] قوسين، أو أدنى .

فأما الدنو والتدلى الذى فى حديث الإسراء، فذلك صريح فى أنه دنو الرب ـ تبارك ـ وتدليه ولا تَعَرُّض فى «سورة النجم» لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، وهذا هو جبريل رآه محمد ﷺ على صورته مرتين : مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم .

فصل

فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله ـ عز وجل ـ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له، وأذاهم، واضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلّاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا[٣] .

وأخبرهم عن عيرهم فى مسراه، ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها، وكان الأمر كما قال[٤]، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا، وأبى الظالمون إلا كفورا .

فصل

وقد نقل ابن إسحاق، عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه،

---

(١) فى ك : «ذو مرة»، وما أثبتناه من خ ، ق .
(٢) فى خ : «قدر»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٣) البخارى فى التفسير (٤٧١٠)، ومسلم فى الإيمان (١٧٠ / ٢٧٦) .
(٤) أحمد (١ / ٣٧٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٥٤٦) : «إسناده صحيح» .

ولم يفقد جسده [١]، ونقل عن الحسن البصرى نحو ذلك [٢].

ولكن ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناما، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، وعائشة، ومعاوية لم يقولا : كان مناما، وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده، وفرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصورة [٣] المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء، أو ذهب به إلى مكة، وأقطار الأرض وروحه لم تصعد، ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال .

والذين قالوا : عرج برسول الله ﷺ طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت : عرج بروحه، ولم يفقد بدنه، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها، وعرج بها حقيقة، وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة، وكان حالها فى ذلك كحالها بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدى الله ـ عز وجل ـ فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض، والذى كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة .

ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم، لكن لما كان رسول الله ﷺ فى مقام خرق العوائد حتى يشق بطنه، وهو حى لا يتألم بذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة، ومن سواه لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت، والمفارقة، فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥٠) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥١) .
(٣) فى ك : «الصور» ، وما أثبتناه من خ ، ق.

وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك فى حال الحياة، ثم عادت، وبعد وفاته استقرت فى الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومع هذا فلها إشراف على البدن، وإشراق وتعلق به بحيث يرد السلام على من سلَّم عليه[١].

وبهذا التعلق رأى موسى قائما يصلى فى قبره[٢]، ورآه فى السماء السادسة، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه، بل ذلك مقام روحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه، واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها، فرآه يصلى فى قبره، ورآه فى السماء السادسة، كما أنه ﷺ فى أعلى مكان فى الرفيق الأعلى مستقرا هناك، وبدنه فى ضريحه غير مفقود، وإذا سلم عليه المسلم رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام، ولم يفارق الملأ الأعلى.

ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا فلينظر إلى الشمس فى علو محلها وتعلقها، وتأثيرها فى الأرض، وحياة النبات، والحيوان بها، هذا وشأن الروح فوق هذا، فلها شأن وللأبدان شأن، وهذه النار تكون فى محلها، وحرارتها تؤثر فى الجسم البعيد عنها، مع أن الارتباط والتعلق الذى بين الروح والبدن أقوى، وأكمل وأتم، فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف.

فقل للعيون الرُّمْد إياك أن ترى ... سَنَا الشمس واستغشى ظلام الليالیا

فصل

قال [موسى بن عقبة، عن][٣] الزهرى: عرج برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس،

---

(١) أبو داود فى النكاح (٢٠٤١)، وأحمد (٢ / ٥٢٧)، وصححه الألبانى.
(٢) مسلم فى الفضائل (٢٣٧٥ / ١٦٤)، والنسائى فى قيام الليل (١٦٣٤)، وأحمد (٣ / ١٢٠).
(٣) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

وإلى السماء قبل خروجه إلى المدينة بسنة، وقال ابن عبد البر، وغيره : وكان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران، انتهى .

وكان الإسراء مرة واحدة .

وقيل : مرتين : مرة يقظة، ومرة مناما، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك [(١)]، وقوله : ثم استيقظت، وبين سائر الروايات، ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرة قبل الوحى لقوله فى حديث شريك : وذلك قبل أن يوحى إليه، ومرة بعد الوحى كما دلت عليه سائر الأحاديث .

ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحى ومرتين [(٢)] بعده، وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تخالف سياق بعض الرواة [(٣)] جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلف [(٤)] عليهم الرواة، عددوا عليهم [(٥)] الوقائع، والصواب الذى عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة .

ويا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه مرارا، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا، ثم يقول : أمضيت فرضى [(٦)]، وخففت عن عبادى، ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها عشرا عشرا، وقد غلط الحفاظ شريكا فى ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه [(٧)]، ثم قال : فقدم وأخر وزاد ونقص ولم يسرد الحديث، وأجاد، رحمه الله [(٨)] .

---

(١) حديث شريك أخرجه البخارى فى التوحيد (٧٥١٧) .
(٢) فى ق: «مرة» ، وما أثبتناه من خ ، ك .
(٣) فى ك : «الروايات» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٤) فى خ ، ق: «اختلفت» ، وما أثبتناه من ق ، ك.
(٥) وفى خ ، ق : «هم»، وما أثبتناه من ك.
(٦) فى ك : «فريضتى» ، وما أثبتناه من خ ، ق.
(٧) مسلم فى الإيمان (١٦٢ / ٢٥٩) .
(٨) بعدها فى ك : «تم السفر الأول من هدى النبى ﷺ والحمد لله رب العالمين» ، وما أثبتناه من خ ، ق .

فصل

فى مبدأ الهجرة التى فرق الله فيها بين أوليائه وأعدائه

وجعلها مبدأ لإعزاز دينه، ونصر عبده، ورسوله

قال الواقدى[١] : حدثنى محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد ابن رومان، وغيرهما، قالوا : أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيا، ثم أعلن فى الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، يوافى الموسم كل عام، يتبع الحاج فى منازلهم، وفى المواسم بعكاظ، ومَجَنَّة، وذى المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يُبلِّغ رسالات ربه، ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره، ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل وسنازلها قبيلة قبيلة، ويقول : «يا أيها الناس، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم العجم، فإذا متم كنتم ملوكا فى الجنة»، وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ، كذاب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه، ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله ويقول : «اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا» .

قال : وكان ممن سمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم، وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صَعْصَعَة، ومحارب بن حَصَفَة، وفزارة، وغسان، ومُرَّة، وحنيفة، وسُلَيْم، وعَبْس، وبنو نضر، وبنو البَكَّاء، وكِنْدة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذْرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد[٢] .

---

(١) فى ك : «الترمذى» والمثبت هو الصواب .

(٢) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٦٨)، وأحمد (٣ / ٤٩٢)، (٤ / ٣٤١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٢٥) : «رواه أحمد وابنه والطبرانى فى الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد، وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات ...» .

فصل

وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن الأوس والخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم،وكان الأنصار يحجون البيت كما كانت العرب تحجه دون اليهود .

فلما رأى الأنصار رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله عز وجل، وتأملوا أحواله، قال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم، أن هذا الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، وكان سُوَيْد بن الصامت من الأوس قد قدم مكة، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يُبْعِدْ، ولم يجب .

ثم قدم مكة أنس بن رافع أبو الحيسر فى فتية من قومه من بنى عبد الأشهل يطلبون الحِلْف، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال إياس بن معاذ وكان شابا حدثًا : يا قوم، هذا والله خير مما جئنا له، فضربه أبو الحيسر، وانتهره، فسكت، ثم لم يتم لهم الحلف فانصرفوا إلى المدينة[1] .

فصل

ثم إن رسول الله ﷺ لقى عند العقبة فى الموسم ستة نفر من الأنصار، كلهم من الخزرج، وهم : أبو أمامة أسعد بن زُرَارَة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقُطْبة بن عامر، وعُقْبة بن عامر، وجابر بن عبد الله فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلموا .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٧٦) .

ثم رجعوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتى لم يبق دار إلا وقد دخلها الإسلام، فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلا، الستة الأول خلا جابر بن عبد الله، ومعهم معاذ بن الحارث بن رفاعة أخو عوف المتقدم، وذَكْوان بن عبد قيس، وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة، فيقال : إنه مهاجرى أنصارى، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التَّيِّهَان، وعويمر بن مالك، اثنا عشر .

وقال أبو الزبير، عن جابر : إن النبى ﷺ لبث [بمكة][1] عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم، ومَجَنَّة، وعكاظ، ومنازلهم من منى، يقول : «من يؤوينى؟ ومن ينصرنى؟ حتى أبلِّغ رسالات ربى، وله الجنة»، فلا يجد أحدا ينصره، ولا يؤويه، حتى إن الرجل ليرحل من مُضَر، أو اليمن إلى ذى رحمه فيأتيه قومه، فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشى بين رجالهم يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه فائتمرنا، واجتمعنا، وقلنا : حتى متى رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة، ويخاف؟

فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم، فواعدنا بيعة العقبة، فقال له عمه العباس : يا بن أخى، ما أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك، إنى ذو معرفة بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين .

فلما نظر العباس فى وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا : يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال : «[تبايعوننى][2] على السمع والطاعة فى النشاط

(١، ٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة» .

فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زُرَارَة، وهو أصغر السبعين، فقال : رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله .

فقالوا : يا أسعد [(١)]، أمِطْ عنا يدك، فوالله لا نَذَرُ هذه البيعة، ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلا رجلا، فأخذ علينا، وشرط يعطينا بذلك الجنة [(٢)].

ثم انصرفوا إلى المدينة، وبعث معهم رسول الله ﷺ عمرو بن أم مكتوم، ومصعب بن عمير يُعَلِّمان من أسلم منهم القرآن، ويدعوان إلى الله ـ عز وجل ـ فنزلا على أبى أمامة أسعد بن زرارة، وكان مصعب بن عمير يؤمهم، وجمع بهم لما بلغوا أربعين [(٣)]، فأسلم على يديهما بشر كثير، منهم : أُسَيْد بن الحضير، وسعد بن معاذ [(٤)].

وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بنى عبد الأشهل الرجال، والنساء، إلا الأُصَيْرم

---

(١) فى خ : «سعد»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) أحمد (٣ / ٣٢٢)، والبيهقى فى الكبرى فى السير (٩ / ٩)، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٢٤، ٦٢٥)، وقال : «صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وابن حبان فى الموارد (١٦٨٦) .

وقوله : «تعضكم السيوف» كناية عن القتل .

(٣) أبو داود فى الصلاة (١٠٦٩)، والحاكم فى المستدرك (١ / ٢٨١) وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ...»، ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الكبرى فى الجمعة (٣ / ١٧٦، ١٧٧)، وابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٨٢) .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٨٣) .

عمرو بن ثابت[١] بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم حينئذ، وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة، فأخبر عنه النبى ﷺ فقال : «عمل قليلا وأجر كثيرا»[٢] .

وكثر الإسلام بالمدينة، وظهر، ثم رجع مصعب إلى مكة، ووافى الموسم ذلك العام خَلْقٌ كثير من الأنصار من المسلمين، والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور، فلما كانت ليلة العقبة، الثلث الأول من الليل تسلل إلى رسول الله ﷺ ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، فبايعوا رسول الله ﷺ خفية من قومهم، ومن كفار مكة، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم، وأبناءهم، وأُزرَهم .

فكان أول من بايعه ليلتئذ البَرَاء بن معرور، وكانت له اليد البيضاء إذ أكد العقد وبادر إليه، وحضر العباس عم رسول الله ﷺ مؤكدا لبيعته، كما تقدم، وكان إذ ذاك على دين قومه .

واختار رسول الله ﷺ منهم تلك الليلة اثنى عشر نقيبا، وهم : أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله ابن عمرو بن حرام والد جابر، وكان إسلامه تلك الليلة، وسعد بن عبادة، والمنذر ابن عمرو، وعبادة بن الصامت، فهؤلاء تسعة من الخزرج، ومن الأوس ثلاثة : أُسَيْد بن الحضير، وسعد بن خَيْثَمة، ورفاعة بن عبد المنذر، وقيل : بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه .

وأما المرأتان : فأم عمارة نُسَيبة بنت كعب بن عمرو، وهى التى قتل مسيلمةُ ابنها حبيب بن زيد، وأسماء بنت عمرو بن عدى .

---

(١) فى ق: «عمرو بن أم مكتوم ثابت»، وما أثبتناه من خ ، ك .
(٢) البخارى فى الجهاد (٢٨٠٨)، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٠ / ١٤٤) وأحمد (٣/ ٢٩٠، ٢٩١) .

فلما تمت هذه البيعة استأذنوا رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل العقبة بأسيافهم، فلم يأذن لهم فى ذلك، وصرخ الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع : يا أهل الجباجب [١]، هل لكم فى مُذَمَّم [٢]، والصُّبَاة معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة [٣]،هذا ابن أَزَيْب ، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك» [٤].

ثم أمرهم أن ينفضُّوا إلى رحالهم، فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش، وأشرافهم حتى وصلوا شعب الأنصار، فقالوا : يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه، أن تبايعوه على حربنا، وايم الله، ما حى من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم.

فانبعث من كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله : ما كان هذا، وما علمنا، وجعل عبد الله بن أبى ابن سلول يقول : هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومى ليفتاتوا علىَّ بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى، فرجعت قريش من عندهم .

ورحل البراء بن معرور فتقدم إلى بطن يأجج، وتلاحق أصحابه من المسلمين، وتطلبتهم قريش، فأدركوا سعد بن عبادة فجعلوا يديه إلى عنقه بِنَسْعة [٥]، وجعلوا يضربونه، ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء مطعم بن عدى، والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فدخل القوم جميعا إلى المدينة .

---

(١) الجبائب : المنازل ، وهى منازل منى .
(٢) يريدون : محمدًا – لعنهم الله .
(٣) أزبّ العقبة : اسم شيطان .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٨٦ ـ ٩٤)، وأحمد (٣ / ٤٦٠ ـ ٤٦٢) .
(٥) النَّسْعَة : قطعة من سير يُنسج عريضًا على هيئة أعنّة النِّعال تُشدّ به الرحال .

فأذن رسول الله ﷺ للمسلمين فى الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك فكان أول من خرج إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة، ولكنها احتبست دونه ومنعت من اللحاق به سنة، وحيل بينها وبين ولدها سلمة، ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة، وشيعها عثمان بن أبى طلحة[١].

ثم خرج الناس أرسالا يتبع بعضهم بعضا، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعلى، أقاما بأمره لهما، وإلا من احتبسه المشركون كرها، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه[٢].

فصل

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا، وحملوا، وساقوا الذرارى، والأطفال، والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة، وبأس، وشوكة، فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحوقه بهم، فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا فى دار الندوة، ولم يتخلف أحد من ذوى الرأى والحجا منهم؛ ليتشاوروا فى أمره.

وحضرهم وليهم، وشيخهم إبليس ـ [لعنه الله][٣] ـ فى صورة شيخ كبير من أهل نَجْد مشتمل الصَّمَّاء[٤] فى كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فأشار كل أحد منهم برأى، والشيخ يرده، ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فُرِقَ لى فيه رأى ما أراكم قد وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١١٠)، وابن سعد فى الطبقات (١ / ١٧٥).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٢٦).

(٣) ساقط من المطبوع.

(٤) وهو: أن يَرُدَّ الكساء من قِبل يمينه على يده اليسرى وعلى عاتقه الأيسر، ثم يردّه ثانية من خَلْفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعًا.

غلاما نهدا، جلدا، ثم نعطيه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا تدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته، فقال الشيخ : لله در الفتى، هذا والله الرأى، فتفرقوا على ذلك وأجتمعوا[(١)] عليه، فجاءه جبريل بالوحى من عند ربه ـ تبارك وتعالى ـ فأخبره بذلك، وأمره ألا ينام فى مضجعه تلك الليلة[(٢)].

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبى بكر نصف النهار فى ساعة لم يكن يأتيه فيها، متقنعا فقال له : «أَخْرِج مَنْ عندك»، فقال : إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال : «إن الله قد أذن لى فى الخروج»، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم»، فقال أبو بكر: فخذ، بأبى وأمى، إحدى راحلتى هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمَن»[(٣)].

وأمر عليا أن يبيت فى مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِير الباب[(٤)]، ويرصدونه، يريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذره على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس]، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبى بكر فخرجا من خَوْخَة[(٥)] فى دار أبى بكر ليلا .

وجاء رجل فرأى القوم ببابه فقال : ما تنتظرون؟ قالوا : محمدًا . قال : خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم وذَرَّ على رؤوسكم التراب، قالوا : والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم : أبو جهل، والحكم بن العاص، وعُقْبَة

---

(١) فى ق، ك : « وأجمعوا » وما أثبتناه من خ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٢٢، ١٢٣)، وابن سعد فى الطبقات (١ / ١٧٥، ١٧٦) .
(٣) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٥).
(٤) صِير الباب : شَقُّه .
(٥) الخَوْخَة : كُوَّة ـ فتحة ـ تُدخل الضوء إلى البيت .

ابن أبى مُعَيْط، والنَّضْر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزَمْعَة بن الأسود، وطُعَيْمَة ابن عدى، وأبو لهب، وأُبَىّ بن خلف، ونبيه، ومُنبِّه، ابنا الحجاج، فلما أصبحوا قام علىٌّ عن الفراش فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال : لا علم لى به .

ثم مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه، وضرب العنكبوت على بابه[(١)] .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أُرَيْقِط الليثى، وكان هاديا ماهرا بالطريق[(٢)]، وكان على دين قومه [من قريش][(٣)]، وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، وجدَّت قريش فى طلبهما، وأخذوا معهم القافة، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه .

ففى الصحيحين أن أبا بكر قال : يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال : «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن فإن الله معنا»[(٤)] .

وكان النبى ﷺ وأبو بكر يسمعان كلامهم فوق رؤوسهما، ولكن الله ـ سبحانه ـ عمَّى عليهم أمرهما .

وكان عامر بن فُهَيْرَة يرعى عليهما غنما لأبى بكر، ويتسمع ما يقال بمكة، ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السَّحَر سَرَحَ مع الناس .

قالت عائشة : وجهزناهما أحث الجهاز، ووضعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فأَوْكَتْ به الجراب، وقطعت الأخرى فصيرتها

---

(١) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٧٦، ١٧٧)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٢٤، ١٢٥)، وعبد الرزاق فى المصنف (٥ / ٣٨٩) .

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٥) .

(٣) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٤) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٥٢)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨١ / ١) .

عِصَاما[١] لفم القربة، فلذلك لقبت : ذات النطاقين[٢].

وذكر الحاكم فى مستدركه، عن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الغار، ومعه أبو بكر يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فسأله، فقال له : يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشى خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك، فقال : «يا أبا بكر، لو كان شىء أحببتَ أن يكون بك دونى؟» قال : نعم، والذى بعثك بالحق .

فلما انتهى إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبرأه، حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجِحَرَة، فقال : مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ الجحرة، [فدخل واستبرأ]، ثم قال : انزل يا رسول الله، فنزل[٣].

فمكثا فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب، فجاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا، وأردف أبو بكر عامر بن فُهيرة، وسار الدليل أمامهما، وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبهما، وإسعاده يرحلهما وينزلهما .

ولما يئس المشركون من الظَّفَرِ بهما، جعلوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما، فجَدَّ الناس فى الطلب، والله غالب على أمره، فلما مروا بحى بنى مُدْلِج مُصْعِدين من

---

(١) فى ق : «عصابا» ، وما أثبتناه من خ ، ك.

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٥)، وابن سعد فى الطبقات (١ / ١٧٧). وقوله : «فأوكت» : أى: ربطت . و«عِصَامًا» : أى: رِباطا .

(٣) الحاكم فى المستدرك (٣ / ٦)، وقال : «صحيح الإسناد على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .

والجِحَرَة : جمع الجُحْر، وهو كل شىء يحتفره الهَوامّ والسباع لأنفسها .

قلت : وما بين المعقوفين ساقط من المطبوع . وقد أثبتناه من المخطوطات، وهو كذلك عند الحاكم.ولا يمكن الانتباه إلى ذلك إلا عن طريق المخطوطات التى قوبلت النصوص عليها، وبخاصة النصوص الحديثية التى ضبطت مرة بالمخطوطات ، ومرة ثانية عند تخريجها من مصادرها .

قُدَيْد، بصر بهم رجل من الحى، فوقف على الحى، فقال : لقد رأيت آنفا بالساحل أسْوِدَة ما أراها إلا محمدا وأصحابه، ففطن بالأمر سُرَاقة بن مالك، فأراد أن يكون الظفر له خاصة، وقد سبق له من الظفر ما لم يكن فى حسابه، فقال : بل هما[١] فلان وفلان، خرجا فى طلب حاجة لهما، ثم مكث قليلا، ثم قام فدخل خباءه، وقال لخادمه : اخرُجْ بالفرس من وراء الخباء، وموعدك وراء الأكمة، ثم أخذ رمحه، وخفض عاليه، يخط به الأرض حتى ركب فرسه، فلما قرب منهم، وسمع قراءة النبى ﷺ، وأبو بكر يكثر الالتفات، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، قال أبو بكر : يا رسول الله، هذا سراقة بن مالك قد رمقنا[٢]، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فساخت يدا فرسه فى الأرض، فقال : قد علمت أن الذى أصابنى بدعائكما، فادعوا الله لى، ولكما على أن أرد الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتابا، فكتب له أبو بكر بأمره فى أديم[٣].

وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة فجاءه بالكتاب فوفّى[٤] له رسول الله ﷺ، وقال : يوم وفاء وبر، وعرض عليهما الزاد، والحملان، فقالا : لا حاجة لنا به، ولكن عمِّ عنا الطلب، فقال : قد كفيتم، ورجع، فوجد الناس فى الطلب، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر، وقد كفيتم ما ها هنا، فكان أول النهار جاهدا عليهما، وآخره حارسًا لهما .

فصل

ثم مر رسول الله ﷺ فى مسيره ذلك حتى مر بخيمتى أم مَعْبَد الخزاعية، وكانت

---

(١) فى المطبوع : « هم » ، وما أثبتناه من المخطوطات هو الموافق للسياق بعدها.
(٢) فى خ : «رهقنا»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٣) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٦) .
(٤) فى خ : «فوفاه»، وما أثبتناه من ق، ك .

امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألاها : هل عندها شيء؟ فقالت : والله، لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى، والشاء عَازِب، وكانت سَنَة شَهْباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كَسْر الخيمة، فقال : «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت : شاة خلَّفها الجهد عن الغنم، فقال : «هل بها من لبن؟» قالت : هى أجهد من ذلك، قال : «أتأذنين لى أن أحلبها؟»، قالت : نعم بأبى وأمى، [إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضَرْعَها، وسمى الله][(١)]، ودعا، فَتفاجَّت عليه ودَرَّتْ، فدعا بإناء لها يُرْبِض الرَّهْط، فحلب فيه حتى علته الرغوة فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانيا حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، وارتحلوا، فقلما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هُزَالا، فلما رأى اللبن عَجِب، وقال : من أين لك هذا، والشاة عازب؟ ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت : لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت، وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال : والله، إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه، صفيه لى يا أم معبد، قالت : ظاهر الوَضَاءة، أبْلَج الوجه، حسن الخَلْق، لم تعبه ثُجْلَة، ولم تزر به صُعْلَة، وسيم، قَسِيم، فى عينيه دَعَج، وفى أَشْفَاره وَطْف، وفى صوته صَحَل، وفى عنقه سَطَع، أحْوَر، أكحل، أزجُّ، أقرنُ[(٢)]، شديدُ سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس، وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حُلْو المنطق، فَصْلٌ لا نَزْر ولا هَذَر، كأنّ منطقه خرزات نظمن يتحدَّرْنَ، رَبعَةٌ، لا تقتحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنضرُ الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٢) قال ابن الأثير فى النهاية (٤ / ٥٤ مادة قرن) : «وفى صفته عليه الصلاة والسلام : «سوابغ فى غير قَرَن» القَرَن ـ بالتحريك ـ التقاء الحاجبين، وهذا خلاف ما روت أم مَعْبد، فإنها قالت فى صفته : «أزجّ أقْرن» أى مقْرون الحاجبين، والأول الصحيح فى صفته» .

رفقاء يحفون به، إذا قال : استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، مَحْفُود، مَحْشُود، لا عابس ولا مُفَنَّد .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا، وأصبح صوت بمكة عاليا يسمعونه، ولا يرون القائل :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر، وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجازى وسودد

ليهن بنى كعب مكان[1] فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد[2]

قالت أسماء [بنت أبى بكر][3] : ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل

---

(١) فى خ : «وكان»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٣ / ٩، ١٠)، وقال : «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٥٨ ـ ٦٠) : «رواه الطبرانى وفى إسناده جماعة لم أعرفهم» .

والشاء عازِب : أى: بعيدة المرعى، لا تأوى إلى المنزل فى الليل . وسَنَة شهَّبَاء : أى: ذات قَحْط وجَدْب . وكَسْر الخيمة : أى: جانبها . وتفاجّت : أى: فرجّت ما بين رجليها . ويُرْبِض الرهط : يرويهم ويثقلهم حتى يناموا ويتمددوا على الأرض، مأخوذ من ربض بالمكان؛ إذا لصق به وأقام. ويَتَساوَكْنَ : يتمايلن من شدة ضعفهنّ. ولا نِقْى بهن: أى: لا مُخَّ لها لضعفها وهزالها. وأبْلج الوجه : مشرقه ومسفره . والشُّجْلَة : ضخامة البطن . والصُّعْلَة : صغر الرأس . والوسيم والقسيم : الحسن . والدَّعَج : شدّة سواد العين مع شدة بياضها . وفى أشفاره وَطْف : أى فى شعر أجفانه طول. وفى صوته صَحل : أى: بُحَّة . وفى عنقه سَطَع : أى ارتفاع وطول . وأحْوَر : أى: أبيض . وأزَجّ : من الزَّجَج، وهو تَقوّس فى الحاجب مع طول فى طرفه وامتداد . وفَصْلٌ لا نَزر ولا هَذَر : أى: بَيِّن ظاهر، يفصل بين الحق والباطل . ومحفود : أى: يخدمه أصحابه ويسرعون فى طاعته . ومحشود أى: يجتمع إليه الناس . والمُفَنَّد : هو الذى لا فائدة فى كلامه لكِبَرِ أصابه .

(٣) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته، ولا يرونه، حتى خرج من أعلاها، قالت : فلما سمعنا قوله، عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة .

فصل

وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحَرَّةِ ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من نبوته، خرجوا على عادتهم، فلما حمى حر الشمس رجعوا، فصعد رجل من اليهود على أُطُم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضِين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قَيْلَة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدكم الذى تنتظرونه، فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ، وسمعت الوجبة[(١)]، والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحا بقدومه، وخرجوا للقائه[(٢)] فتلقوه، وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا مُطِيفين[(٣)] حوله، والسكينة تغشاه والوحى ينزل عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم : ٤] فسار حتى نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم بن الهِدْم، وقيل : بل على سعد بن خَيْثَمة، والأول أثبت، فأقام فى بنى عمرو ابن عوف أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قُبَاءٍ، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة[(٤)] .

---

(١) فى خ : «الرجة» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٢) فى خ : «إلى لقائه» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٣) فى خ : «مطبقين» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٤) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٠)، والحاكم فى المستدرك (٣ / ١١)، وقال : «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» والسيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٣٣، ١٣٤) .

والحَرَّة : أرض ذات حجارة سُود، تقع قِبلِىّ المدينة . والأُطُم : الحصن المبنى بالحجارة .

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى.

ثم ركب، فأخذوا بخطام راحلته هلم إلى العدد، والعدة، والسلاح، والمنعة فقال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فلم تزل ناقته سائرة به، لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه فى النزول عليهم، ويقول: «دعوها، فإنها مأمورة»، فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم، وبركت ولم ينزل عنها حتى نهضت، وسارت قليلا، ثم التفتت[1]، ورجعت، فبركت فى موضعها الأول فنزل عنها، وذلك فى بنى النجار أخواله ﷺ، وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»، وجاء أسعد بن زُرَارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده[2].

وأصبح كما قال أبو قيس صِرْمَة الأنصارى - وكان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الأبيات:

ثَوَى فى قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّر لو يلقى حبيبا مُوَاتيا

ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا

فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسرورا بطيبة راضيا

وأصبح لا يخشى ظُلَامَة ظالم ... بعيد ولا يخشى من الناس باغيا

بذلنا له الأموال من حِلِّ[3] مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعا وإن كان الحبيب المُصَافيا

---

(١) فى خ: «التفت»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٣٧، ١٣٨)، وابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٢، ١٨٣)، وانظر: البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٢٥)، ومسلم فى الأشربة (٢٠٥٣ / ١٧١).

(٣) فى خ: «جُلّ»، وما أثبتناه من ق، ك.

ونعلـــم أن الله لا رب غـــيره وأن كتـاب الله أصـبح هاديـا[١]

قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ بمكة فأُمِر بالهجرة، وأنزل عليه : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء][٢] .

قال قتادة : أخرجه[٣] الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق، ونبى الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانا نصيرا، وأراه الله ـ عز وجل ـ دار الهجرة، وهو بمكة، فقال : «أُرِيت دار هجرتكم، سَبْخَة ذات نخل بين لابتين»[٤] .

وذكر الحاكم فى صحيحه[٥] عن على بن أبى طالب، أن النبى ﷺ قال لجبريل : «من يهاجر معى؟» قال : أبو بكر الصديق[٦] .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مُصْعَب بن عُمَيْر، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم جاء بلال وعمار، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب ﷺ فى عشرين راكبا، ثم جاء رسول الله ﷺ ، فما رأيت الناس فرحوا بشىء فرحهم به، حتى رأيت النساء، والصبيان، والإماء، يقولون : هذا رسول الله قد جاء[٧] .

---

(١) البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٥١٣، ٥١٤)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢ / ١٥٤) . وانظر: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤ / ٥٠٥) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٣٩)، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم فى المستدرك (٣ / ٣)، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وقال الألبانى : «ضعيف الإسناد» .

(٣) فى خ : «أخره» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٤) البخارى فى الكفالة (٢٢٩٧)، والحاكم فى المستدرك (٣ / ٣، ٤)، وقال : «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .

(٥) يقصد المستدرك .

(٦) الحاكم فى المستدرك (٣ / ٥)، وقال:«صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه»، وقال : «صحيح غريب» .

(٧) البخارى فى التفسير (٤٩٤١) .

وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات، فما رأيت يوما قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات[١] .

فأقام فى منزل أبى أيوب حتى بنى حجرته، ومسجده، وبعث رسول الله ﷺ وهو فى منزل أبى أيوب زيد بن حارثة، وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة، وأم كلثوم ابنتيه[٢]، وسَوْدَة[٣] بنت زَمْعَة زوجته، وأسامة بن زيد، وأمه أم أيمن، وأما زينب [بنت رسول الله ﷺ][٤] فلم يمكِّنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج، وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر، وفيهم عائشة، فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان[٥] .

---

(١) أحمد (٣ / ١٢٢، ١٢٣)، والدارمى فى المقدمة (٨٨)، وسنده صحيح .
(٢) فى ق: «ابنته»، وما أثبتناه من خ ، ك .
(٣) فى خ : «زينب»، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٤) ليست فى خ ، ك ، وما أثبتناه من ق .
(٥) طبقات ابن سعد (١ / ١٨٣) .

obeikandl.com

فصل

فى بناء المسجد

قال الزهرى : بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجده، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدا لسَهْل وسُهَيْل، غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا فى حِجْرِ أسعد بن زُرَارة، فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد ليتخذه مسجدا، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان جدارا ليس له سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان يصلى فيه، ويجمِّع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله ﷺ وكان فيه شجرة غَرْقَد، [وخِرَبٌ][(١)]، ونخل، وقبور للمشركين فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، [وبالخرب فسويت][(٢)]، وبالنخل، والشجر فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللبن، وجعل رسول الله ﷺ يبنى معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه، ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره ... فاغفر للأنصار والمهاجره

وكان يقول :

هذا الحِمَال لا حمال[(٣)] خيبر ... هذا أبَرَّ ربنا وأطهر[(٤)]

(١، ٢) ليست فى ق، ط، وما أثبتناه من خ .

(٣) فى خ : «جمال»، وما أثبتناه من ق، ك .

(٤) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٤، ١٨٥)، والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٠٦)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٤ / ٩) .

وجعلوا يرتجزون، وهم ينقلون اللبن، ويقول بعضهم فى رجزه :

لـئن قعـدنا والرسـول يعمـل لـذاك منـا العمـل المضلَّل

وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب : بابا فى مؤخره، وبابا يقال له : باب الرحمة، والباب الذى يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل عمده الجذوع، وسُقِّفَ بالجريد، وقيل له : ألا تسقفه؟ فقال : «لا، عريش كعريش موسى»، وبنى إلى جنبه بيوت الحُجَر[١] باللبن، وسقفها بالجريد، والجذوع، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة فى البيت الذى بناه لها، شرقى[٢] المسجد قبليه، وهما مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعة بيتا آخر[٣].

فصل

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب : ٦] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة[٤].

وقد قيل : إنه واخى[٥] بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ

---

(١) أى : بيوت أزواجه .

(٢) فى ق : «فى»، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٣) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٥) .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٥٨٠)، وأبو داود فى الفرائض (٢٩٢١، ٢٩٢٢)، والنسائى فى الكبرى فى الفرائض (٦٤١٧) .

(٥) فى خ : «آخى»، وما أثبتناه من ق ، ك .

فيها عليا أخا لنفسه، والثبت الأول[١]، والمهاجرون كانوا يستغنون[٢] بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو واخى بين المهاجرين لكان[٣] أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه، ورفيقه فى الهجرة، وأنيسه فى الغار، وأفضل الصحابة، وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ﷺ، وقد قال: «لو كنت متخذا من[٤] أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضل»، وفى لفظ: «ولكن أخى و صاحبى»[٥].

وهذه الأخوة فى الإسلام وإن كانت عامة، كما قال: «وددت أن قد رأينا إخواننا»، قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابى، وإخوانى قوم يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى»[٦]، فللصدِّيق من هذه الأخوة أعلى مراتبها، كما له من الصحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأخوة ومزية الصحبة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة.

فصل

ووادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابا، وبادر

---

(١) الطبرانى فى الكبير (٨ / ١٤٩) (٧٥٧٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ١١٢): «رواه الطبرانى من طريق بشر بن عون وهو ضعيف».

يقول الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٤ / ٥٦١، ٥٦٢): «أما مؤاخاة النبى ﷺ وعلى، فإن من العلماء من ينكر ذلك، ويمنع صحته، ومستنده فى ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض، وليتألف قلوب بعضهم بعض ... اللهم إلا أن يكون النبى ﷺ لم يجعل مصلحة على إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره فى حياة أبيه أبى طالب».

(٢) فى خ: «مستغنين»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٣) فى خ: «كان»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٤) فى ق: «متخذا خليلا من»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٥) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٥٦، ٣٦٥٧)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٢).

(٦) مسلم فى الطهارة (٢٤٩ / ٣٩).

حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل فى الإسلام[١]، وأبى عامتهم إلا الكفر .

وكانوا ثلاث قبائل : بنو قَيْنُقَاع، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة، وحاربته الثلاثة فمنَّ على بنى قينقاع، وأجلى بنى النضير، وقتل بنى قريظة، وسبى ذريتهم، ونزلت «سورة الحشر» فى بنى النضير، و «سورة الأحزاب» فى بنى قريظة .

فصل

وكان يصلى إلى قبلة بيت المقدس، ويحب أن يصرف إلى الكعبة، فقال لجبريل : «وددت أن صَرَف الله وجهى عن قبلة اليهود»، فقال : إنما أنا عبد فادع ربك وسله، فجعل يقلِّب وجهه فى السماء يرجو ذلك، حتى أنزل الله عليه : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٤]، وذلك بعد ستة عشر شهرا من مقدمه المدينة قبل وقعة بدر بشهرين[٢] .

قال محمد بن سعد : حدثنا هاشم بن القاسم قال : حدثنا أبو معشر، عن محمد ابن كعب القرظى، قال: ما خالف نبى نبيا قط فى قبلة، ولا فى سنة، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهرا، ثم قرأ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الشورى : ١٣][٣] .

وكان فى جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة،

---

(١) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٩٣٨) .

(٢) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٦)، والترمذى فى التفسير (٢٩٦٢)، وقال : «حسن صحيح»، وصححه الألبانى .

(٣) ابن سعد فى الطبقات (١ / ١٨٧).

ومحنة للمسلمين، والمشركين، واليهود، والمنافقين .

فأما المسلمون، فقالوا : سمعنا، وأطعنا، وقالوا : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧]، وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم .

وأما المشركون، فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا لأنها الحق .

وأما اليهود، فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء .

وأما المنافقون، فقالوا : ما يدرى محمد أين يتوجه؟ إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى : ﴿وَإِن [كَانَتْ] [1] لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ١٤٣]، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه .

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيما وطأ ـ سبحانه ـ قبلها أمر النسخ، وقدرته عليه، وأنه يأتى بخير من المنسوخ، أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تَعَنَّتَ رسول الله ﷺ، ولم يَنْقَد له، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود، والنصارى، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شىء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم، واتباع أهوائهم، ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم : إن له ولدا سبحانه وتعالى عما يقولون ، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب، وأينما يولى عباده وجوههم فثم وجهه، وهو الواسع العليم، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما توجه العبد فثم وجه الله .

---

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه، ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه الله من ذلك ـ فما له من الله من ولى ولا نصير .

ثم ذكر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوفهم من بأسه يوم لقائه، ثم ذكر خليله بانى بيته الحرام، وأثنى عليه، ومدحه، وأخبر أنه جعله إماما للناس يأتم به أهل الأرض، ثم ذكر بيته الحرام وبناء خليله له، وفى ضمن هذا أن بانى البيت كما هو إمام للناس، فكذا البيت الذى بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا به ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين .

ثم رد على من قال : إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئة ومقدمات بين يدى تحويل القبلة، ومع هذا كله فكبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة، وأمر به حيثما كان رسوله ومن حيث خرج .

وأخبر أن الذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذى هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هى القبلة التى تليق بهم، وهم أهلها؛ لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم فى خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم فى الجنة خير المنازل، وموقفهم فى القيامة خير المواقف، فهم على تَلٍّ عال، والناس تحتهم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولَكِن الظالمون

الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التى ذكرت، ولا يعارض [الملحدون][(١)] الرسل إلا بها، وبأمثالها من الحجج الداحضة، وكل من قدم على أقوال الرسول سواها فحجته من جنس حجج هؤلاء.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم، وليهديهم، ثم ذكّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم؛ ليزكيهم به ويعلمهم الكتاب، والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره، وشكره؛ إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته[(٢)]، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر، والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

فصل

وأتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان فى اليوم والليلة خمس مرات، وزادهم فى الظهر، والعصر، والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية[(٣)]، وكل هذا كان بعد مقدمه المدينة.

---

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) فى خ: «كراماته»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٣) البخارى فى الصلاة (٣٥٠)، ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٥ / ١).

فصل

[فى الإذن فى القتال]

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، وبعباده المؤمنين [الأنصار][(١)]، وألف بين قلوبهم بعد العداوة، والإحن التى كانت بينهم، فمنعته أنصار الله، وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة، والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله ـ سبحانه ـ يأمرهم بالصبر، والعفو، والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ فى القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: إن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثانى: إن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج: ٤٠]، وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[الحج: ١٩] نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين[(٢)].

---

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٤٣، ٤٧٤٤).

الرابع: إنه [قد][(١)] خاطبهم فى آخرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والخطاب بذلك كله مدنى، فأما الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: إنه أمر فيها بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد، وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به فى مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أى: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما حق الجهاد المأمور به فى «سورة الحج» فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: إن الحاكم روى فى مستدركه، من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، وهى أول آية نزلت فى القتال[(٢)]، وإسناده على شرط الصحيحين، وسياق السورة يدل على أن فيها المكى والمدنى، فإن قصة إلقاء الشيطان فى أمنية الرسول مكية، والله أعلم.

فصل

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) الحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٦)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٧١)، وقال: «حسن»، وأحمد (١ / ٢١٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٨٦٥): «إسناده صحيح».

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرما، ثم مأذونا فيه، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين؛ إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور .

والتحقيق : إن جنس الجهاد فرض عين، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع .

أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية .

وأما الجهاد بالمال ففى وجوبه قولان، والصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به، وبالنفس فى القرآن سواء، كما قال تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة]، وعلَّق النجاة من النيران به ومغفرة الذنب ، ودخول الجنة، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصف] .

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب فقال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى: ولكم خصلة أخرى تحبونها فى الجهاد، وهى ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : ١٣].

وأخبر سبحانه أنه ﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة:١١١]، وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد، قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهى : التوراة، والإنجيل، والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذى عاقدوه

عليه، ثم أعلمهم بأن ذلك هو الفوز العظيم .

فليتأمل المعاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره، وأجله، فإن الله ـ عز وجل ـ هو المشترى، والثمن جنات النعيم، والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذى جرى على يده هذا العقد أشرف رسله، وأكرمهم عليه من الملائكة، ومن البشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم، وخطب جسيم :

قد هيؤوك لأمر لو [1] فَطِنْتَ لـه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذى اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسَوْم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض فى سوق من يريد فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت فى يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة : ٥٤] .

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخَلِيُّ حرفة الشَّجِيِّ ، فتنوع المدعون فى الشهود فقيل : لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران : ٣١]، فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول فى أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة .

وقيل : لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة : ٥٤]، فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين

(١) فى ق: «قد» ، وما أثبتناه من خ ، ك.

أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين .

فلما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن وجلالة [قدر] [١] من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذى أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدرا وشأنا ليس لغيرها[٢] من السلع،فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش،أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء، فعقدوا مع المشترى بيعة الرضوان رضًا واختيارا من غير ثبوت خيار، وقالوا : والله لا نقيلك ولا نستقيلك .

فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم : قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران]، لم نثامنكم بنفوسِكم وأموالكم طلبا للربح عليكم ولكن[٣] ليظهر أثر الجود والكرم فى قبول المعيب والإعطاء عليه أجَلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن .

وتأمل هاهنا قصة جابر بن عبد الله وقد اشترى منه النبى ﷺ بعيره، ثم وفاه الثمن، وزاده ورد[٤] عليه البعير[٥]، وكان أبوه قد قتل مع النبى ﷺ فى وقعة أحد، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره أن الله أحياه وكلمه كفاحا، وقال : «يا عبدى، تمنَّ على»[٦] .

---

(١) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٢) فى خ : «لغيرهم»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٣) فى خ : «بل» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٤) فى خ : «رده» ، وما أثبتناه من ق ، ك.

(٥) البخارى فى الوكالة (٢٣٠٩)، ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧١٥ / ٧١)، وأبو داود فى البيوع (٣٥٠٥)، والترمذى فى البيوع (١٢٥٣)، والنسائى فى البيوع (٤٦٣٧)، وابن ماجه فى التجارات (٢٢٠٥) .

(٦) أحمد (٣ / ٣٦١)، والترمذى فى التفسير (٣٠١٠)، وقال : «حسن غريب»، وابن ماجه فى المقدمة (١٩٠)، وحسنه الألبانى .

فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، لقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجلّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو الذى وفقه له وشاءه منه .

فحيهلا إن كنت ذا هِمَّةٍ فقد ... حدا بك حادى الشوق فَاطْوِ المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زادا إليهم وسر على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا
وأحْى بذكراهم شِرَاكَ إذا دَنَتْ ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا
وإما تخافن الكَلَال[1] فقل لها ... أمامك وِرْدُ الوصل فابغى المناهلا
وخذ قبسا من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وحَىِّ على وادى الأراك فَقِلْ[2] به ... عساك تراهم ثَمَّ إن كنت قائلا
وإلا ففى نَعْمَان[3] عندى مُعَرِّف الـ ... ـأحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا
وإلا ففى جَمْعٍ[4] بليلته فإن ... تَفُتْ فمِنًى يا ويح من كان غافلا
وحَىِّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى بها كنت نازلا
ولكن سَبَاكَ الكاشحون[5] لأجْلِ ذا ... وقفت على الأطلال تبكى المنازلا
وحى على يوم المزيد بجنة الـ ... ـخلود فَجُدْ بالنفس إن كنت باذلا
فدعها رُسُوما[6] دارسات فما بها ... مقيل وجاوزها فليست منازلا

(١) الكَلال : الإعياء والتعب .
(٢) هى القيلولة .
(٣) نَعْمَان : وادٍ وراء عرفة .
(٤) جَمْع : هى المزدلفة .
(٥) جمع الكاشح؛ وهو : مُضمِر العداوة .
(٦) جمع الرَّسْم، وهو : الأثر أو بقيته .

رسوما عَفَتْ ينتابها الخلق كم بها ... قتيل وكم فيها لذا الْخَلْق قاتلا
وخذ يَمْنَةً عنها على المنهج الذى ... عليه سَرَى وفد الأحبة آهلا[١]
وقل ساعدى يانفس بالصبر ساعة ... فعند اللقا ذا الكَدُّ يصبح زائلا
فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا[٢]

لقد حرك الداعى إلى الله، وإلى دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادى الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع ـ والله ـ من كان حيا، فهزه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا[٣] به فى طريق سيره، فما حَطَّتْ به رحاله إلا بدار القرار، فقال: «انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى، وتصديق[٤] برسلى، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سَرِيَّة، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، [ثم أقتل][٥]»[٦].

وقال: «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله، وقد تكفل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما، مع [ما نال من] أجر أو غنيمة»[٧].

---

(١) يقال: مكان آهِل: أى له أهْل، وأهل الرجل: عشيرته وذوو قرباه.
(٢) الجُذلان: الفرح. وفى القاموس المحيط: جَذِل: فَرِح فهو جَذِلٌ وجَذْلانُ من جُذْلانٍ، وجاء فى الشعر: جاذِلٌ.
(٣) فى خ: «يحدى»، وما أثبتناه من ق، ك.
(٤) فى خ: «أو تصديق»، وما أثبتناه من ق، ك.
(٥) من البخارى وابن ماجه.
(٦) البخارى فى الإيمان (٣٦)، والنسائى فى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٥٣).
(٧) البخارى فى الجهاد (٢٧٨٧)، ومسلم فى الإمارة (١٨٧٨ / ١١٠)، والنسائى فى الجهاد (٣١٢٤)، ومالك فى الموطأ فى الجهاد (٢ / ٤٤٣) (١).
قلت: وما بين المعقوفين ساقط من المطبوع، وقد أثبتناه من المخطوطات، وهو كذلك فى مصادر التخريج.

وقال : «غَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها»[١].

وقال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : «أيما عبد من عبادى خرج مجاهدا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى، ضمنت له أن أرجعه [إن أرجعته][٢] بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة»[٣].

وقال : «جاهدوا فى [سبيل][٤] الله، فإن الجهاد فى سبيل الله باب من أبواب الجنة، ينجى الله به من الهَمِّ والغَمِّ»[٥].

وقال : «أنا زعيم ـ والزعيم الحميل[٦] ـ لمن آمن بى وأسلم، [وهاجر ببيت فى رَبَضِ الجنة، وببيت فى وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بى، وأسلم][٧]. وجاهد فى سبيل الله ببيت فى ربض الجنة، وبيت فى وسط الجنة، وبيت فى أعلى غرف الجنة، فمن فعل ذلك، فلم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، يموت حيث شاء أن يموت»[٨].

وقال : «من قاتل فى سبيل الله من رجل مسلم فُوَاقَ ناقة وجبت له الجنة»[٩].

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٢)، ومسلم فى الإمارة (١٨٨١ / ١١٤)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٨).

(٢) من النسائى.

(٣) النسائى فى الجهاد (٣١٢٦)، وصححه الألبانى.

(٤) من المسند.

(٥) أحمد (٥ / ٣١٤، ٣١٦)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٧٥) : «أحد مسانيد أحمد وغيره ثقات»، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٧٥)، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى.

(٦) من بعدها فى ب « الكفيل » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٧) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٨) النسائى فى الجهاد (٣١٣٣)، وصححه ابن حبان فى الموارد (١٥٨٧)، والحاكم فى المستدرك (٣/ ٧١)، ووافقه الذهبى.

ورَبَض الجنة : هو ما حولها خارجا عنها، تشبيها بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت القلاع.

(٩) أبو داود فى الجهاد (٢٥٤١)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٧)، والنسائى فى الجهاد (٣١٤١)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٩٢)، وصححه الألبانى. وفُوَاق ناقة : هو ما بين الحلبتين من الراحة، وتضم فاؤه وتفتح.

وقال : «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(١) .

وقال لأبى سعيد : «من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد، وقال : أعدها على يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال : وما هى يا رسول الله؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله»(٢) .

وقال : «من أنفق زوجين فى سبيل الله، دعاه خزنةُ الجنة كلُّ خزنة بابٍ : أى عبد الله، هلم، فمن كان من أهل الصلاة دُعِىَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الرَّيَّان»، فقال أبو بكر ﷺ : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال : «نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٣) .

وقال : «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله [وعاد مريضا](٤) أو مَازَ أذىً عن طريق، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جُنَّةٌ ما لم يخرقها ومن ابتلاه الله فى جسده فهو له حِطَّةٌ»(٥) .

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٠)، وأحمد (٢ / ٣٣٥) .

(٢) مسلم فى الإمارة (١٨٨٤ / ١١٦)، والنسائى فى الجهاد (٣١٣١) .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٨٤١)، ومسلم فى الزكاة (١٠٢٧ / ٨٥)، والنسائى فى الجهاد (٣١٣٥) .

(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٥) أحمد (١ / ١٩٥، ١٩٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٦٩٠) : «الإسناد فى أصله صحيح ...»

وقوله : «مَازَ أذى» : أى: نَحَّاه وأزاله و«الصوم جُنَّة» : أى وقاية و«حِطَّة» : أى تحطّ عنه خطاياه وذنوبه .

وذكر ابن ماجه عنه : «من أرسل بنفقة فى سبيل الله، وأقام فى بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك، فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم» ثم تلا هذه الآية : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة : ٢٦١][(١)].

وقال : «من أعان مجاهدا فى سبيل الله أو غارمًا فى غرمه أو مكاتبا فى رقبته، أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»[(٢)].

وقال : «من اغْبَرَّتْ قدماه فى سبيل الله، حرمهما الله على النار»[(٣)].

وقال : «لا يجتمع شُحٌّ وإيمان فى قلب رجل [واحد][(٤)]، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى وجه عبد»[(٥)]، وفى لفظ : «فى قلب عبد»[(٦)]، وفى لفظ : «فى جوف امرئ»[(٧)]، وفى لفظ : «فى مَنْخَرَىْ مسلم»[(٨)].

وذكر الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عنه : «من اغبرت قدماه فى سبيل الله ساعة من نهار، فهما حرام على النار»[(٩)].

---

(١) ابن ماجه فى الجهاد (٢٧٦١)، وفى الزوائد : «فى إسناده خليل بن عبد الله، قال الذهبى : لا يعرف، وكذا قال ابن عبد الهادى»، وضعفه الألبانى .

(٢) أحمد (٣ / ٤٨٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٨٦) : «وفيه عبد الله بن سهل بن حنيف، ولم أعرفه، وعبد الله بن محمد بن عقيل حديثه حسن»، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٢١٧)، وقال : «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال الذهبى : «بل عمرو ـ ابن ثابت ـ رافضى متروك» .

(٣) البخارى فى الجمعة (٩٠٧)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٣٢)، وأحمد (٣ / ٤٧٩) .

(٤) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

(٥) النسائى فى الجهاد (٣١١١)، وأحمد (٢ / ٣٤٢)، وصححه الألبانى .

(٦) النسائى فى الجهاد (٣١١٤)، وأحمد (٢ / ٢٥٦) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٤٧٤) : «إسناده صحيح» . والحاكم فى المستدرك (٢ / ٧٢)، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .

(٧) النسائى فى الجهاد (٣١١٥)، وأحمد (٢ / ٤٤١)، وصححه الألبانى .

(٨) النسائى فى الجهاد (٣١١٣)، وصححه الألبانى .

(٩) أحمد (٥ / ٢٢٥، ٢٢٦)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٨٨) : «رجال أحمد فى أحد الطريقين رجال الصحيح» .

وذكر عنه ـ أيضا : «لا يجمع الله فى جوف رجل غبارا فى سبيل الله، ودخان جهنم، ومن اغبرت قدماه فى سبيل الله، حرم الله سائر جسده على النار، ومن صام يوما فى سبيل الله، باعد الله عنه النار مسيرة ألف سنة للراكب المستعجل، ومن جرح جِرَاحَة فى سبيل الله، ختم له بخاتم الشهداء، له نور يوم القيامة، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك[١]، يعرفه بها الأولون والآخرون، ويقولون: فلان عليه طابع الشهداء، ومن قاتل فى سبيل الله فُوَاقَ ناقة وجبت له الجنة»[٢] .

وذكر ابن ماجه عنه : «من راح روحة فى سبيل الله، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكا يوم القيامة»[٣] .

وذكر أحمد ـ رحمه الله ـ عنه : «ما خالط قلب امرئ رَهَجٌ فى سبيل الله إلا حرم الله عليه النار»[٤] .

وقال : «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[٥] .

وقال : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمِنَ الفَتَّان[٦]»[٧] .

---

(١) فى خ : «وريحها المسك»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) أحمد (٦ / ٤٤٣، ٤٤٤)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٨٨) : «رجاله ثقات إلا أن خالد بن دريك لم يسمع من أبى الدرداء ولم يدركه» .

و«فُواق ناقة» : هو ما بين الحلبتين من الراحة .

(٣) ابن ماجه فى الجهاد (٢٧٧٥)، وفى الزوائد : «هذا إسناد حسن مختلف فى رجال إسناده»، وحسنه الألبانى .

(٤) أحمد (٦ / ٨٥)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٧٨، ٢٧٩) : «رجال أحمد ثقات».

والرَّهَج : الغُبَار .

(٥) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٢) .

(٦) فى خ : «الفتانان»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٧) مسلم فى الإمارة (١٩١٣ / ١٦٣)، والنسائى فى الجهاد (٣١٦٧).

والفَتَّان : الشيطان؛ لأنه يفتن الناس عن الدِّين .

وقال : «ما من ميتٍ يموت إلا يُخْتَم على عمله، إلا من مات مرابطا فى سبيل الله، فإنه يَنْمُو له عمله إلى يوم القيامة، وأَمِنَ من فتنة القبر»[١].

وقال : «رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»[٢].

وذكر الترمذى عنه : «من رابط ليلة فى سبيل الله، كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها»[٣].

وقال : «مقام أحدكم فى سبيل الله خير من عبادة أحدكم فى أهله ستين سنة، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة، جاهدوا فى سبيل الله، ومن قاتل فى سبيل الله فُوَاق ناقة وجبت له الجنة»[٤].

وذكر أحمد عنه : «من رابط فى شىء[٥] من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجزأت عنه رباط سنة»[٦].

وذكر عنه ـ أيضا : «حرس ليلة فى سبيل الله، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها،

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٠)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢١)، وقال : «حسن صحيح»، وأحمد (٦ / ٢٠)، وصححه الألبانى .

(٢) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦٧)، وقال : «حسن صحيح غريب»، والنسائى فى الجهاد (٣١٦٩)، والدارمى فى الجهاد (٢٤٢٤)، وأحمد (١ / ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٤٤٢) : «إسناده صحيح» .

(٣) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦٧)، وقال : «حسن صحيح غريب»، وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٦٦)، وفى الزوائد : «فى إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ضعفه أحمد وابن معين وغيرهما»، واللفظ له، وصححه الألبانى .

(٤) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٠)، وقال : «حسن» وأحمد (٢ / ٤٤٦، ٥٢٤)، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٨)، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الكبرى فى الجهاد (٩ / ١٦١)، وحسنه الألبانى .

و«فُوَاق ناقة» : تقدم معناها قريبا .

(٥) فى ق: «رابط شيئا»، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٦) أحمد (٦ / ٣٦٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٩٢) : «فيه إسماعيل بن عياش ...»، وبقية رجاله ثقات .

ويصام نهارها»[١].

وقال: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله»[٢].

وذكر أحمد عنه: «مَنْ حرس مِنْ وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعا لا يأخذه سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تَحِلَّةَ القسم، فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١][٣].

وقال لرجل حرس المسلمين ليلة فى سفرهم، من أولها إلى الصباح، على ظهر فرسه، لم ينزل إلا لصلاة، أو قضاء حاجة: «قد أَوْجَبَتْ فلا عليك ألا تعمل بعدها»[٤].

وقال: «من بلغ بسهم فى سبيل الله، فله درجة فى الجنة»[٥].

وقال: «من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر، ومن شاب شيبة فى سبيل الله، كانت له نورا يوم القيامة»[٦]، وعند النسائى تفسير الدرجة بمائة عام[٧].

وقال: «إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة: صانعه يحتسب فى صنعته الخير،

---

(١) أحمد (١ / ٦١، ٦٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٤٣٣): «إسناده ضعيف؛ مصعب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير ضعيف».

(٢) النسائى فى الجهاد (٣١١٧)، والدارمى فى الجهاد (٢٤٠٠)، وأحمد (٤ / ١٣٤)، وصححه الألبانى.

(٣) أحمد (٣ / ٤٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٩٠): «فى أحد إسنادى أحمد: ابن لهيعة وهو أحسن حالا من رشدين». والمراد بتَحِلَّة القسم: الورود على النار والاجتياز بها. كما ورد بالآية وهذا مثل فى القليل المُفْرِط فى القلة، وهو أن يباشر من الفعل الذى يقسم عليه المقدار الذى يُبِرُّ به قَسَمه، مثل أن يحلف على النزول بمكان، فلو وَقَع به وَقْعه خفيفة أجزأته، فتلك تَحِلة قسَمه، فالمعنى لا تمسّه النار إلا مَسَّة يسيرة مثل تحلة قسم الحالف.

(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠١)، وصححه الألبانى.

(٥) أبو داود فى العتق (٣٩٦٥)، والنسائى فى الجهاد (٣١٤٣)، وأحمد (٤ / ٣٨٤)، وصححه الألبانى.

(٦) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٣٨)، وقال: «صحيح»، والنسائى فى الجهاد (٣١٤٣)، وأحمد (٤/ ١١٣)، وصححه الألبانى.

(٧) النسائى فى الجهاد (٣١٤٤) وفيه «بين الدرجتين مائة عام»، وصححه الألبانى.

والمُمِدّ به، والرامى به، وارموا واركبوا، فأن ترموا [١] أحب إلى من أن تركبوا، وكل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه، و تأديبه فرسه وملاعبته امرأته، ومن علمه الله الرمى فتركه رغبة عنه فنعمة كفرها» [٢] رواه أحمد وأهل السنن .

وعند ابن ماجه «من تعلم الرمى، ثم تركه فقد عصانى» [٣].

وذكر أحمد عنه أن رجلا قال له : أوصنى قال : «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شىء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه نور لك فى السماء، وذكر لك فى الأرض» [٤].

وقال : «ذِرْوَة سَنَام الإسلام الجهاد» [٥].

وقال : «ثلاثة حَقٌّ على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله، والمُكَاتَب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العَفَاف» [٦].

وقال : «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالجهاد، مات على شعبة من

---

(١) فى خ : «وإن ترموا»، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٢) أحمد (٤ / ١٤٤)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥١٣)، والنسائى فى الجهاد (٣١٤٦)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨١١)، وضعفه الألبانى .

(٣) ابن ماجه فى الجهاد (٢٨١٤)، وقال الألبانى : «صحيح ـ بلفظ : فليس منا» .

(٤) أحمد (٣ / ٨٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٢١٨) : «رجال أحمد ثقات» .

(٥) أحمد (٥ / ٢٣١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٧٦، ٢٧٧) : «فيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد يحسن حديثه».

وقوله : «ذِرْوَة» : الذروة هى أعلى سَنَام البعيرة وذروة كل شىء أعلاه .

(٦) أحمد (٢ / ٢٥١)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٤١٠): «إسناده صحيح»، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٥)، وقال : «حسن»، والنسائى فى النكاح (٣٢١٨)، وابن ماجه فى العتق (٢٥١٨)، وصححه ابن حبان فى الإحسان (٤٠١٩)، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٢١٧)، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .

وقوله : «والمُكَاتَب الذى يريد الأداء» : الكتابة : أن يكاتِبَ الرجل عبدَه على مال يؤديه إليه مُفَرَّقًا، فإذا أدَّاه صار حُرًّا .

نفاق»[(١)].

وذكر أبو داود عنه: «من لم يغز، أو يُجهِّز غازيا، أو يخلف غازيا فى أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»[(٢)].

وقال: «إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِينَة[(٣)]، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»[(٤)].

وذكر ابن ماجه عنه: «من لقى الله ـ عز وجل ـ وليس له أثر فى سبيله، لقى الله وفيه ثُلمَة»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]. وفسر أبو أيوب الأنصارى الإلقاء باليد إلى التهلكة بترك الجهاد[(٦)].

---

(١) أحمد (٢ / ٣٧٤)، ومسلم فى الإمارة (١٩١٠ / ١٥٨)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٢)، والنسائى فى الجهاد (٣٠٩٧).

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٠٣)، وصححه الألبانى.

(٣) فى خ، ق: «بالعين»، وما أثبتناه من ك.

(٤) أبو داود فى البيوع (٣٤٦٢)، وأحمد (٢ / ٢٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٤٨٢٥): «إسناده صحيح»، والبيهقى فى الكبرى فى البيوع (٥ / ٣١٦).

والعِينَة: هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسمًّى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به.

فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراها إلى أجل مُسمًّى، ثم باعها المشترى من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن، فهذه أيضًا عينة وأكثر الفقهاء على إجازتها على كراهة من بعضهم لها. وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة؛ لأن العين هو المال الحاضر من النقد، والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه مُعَجَّلَة (النهاية فى غريب الحديث ـ مادة كتب).

(٥) ابن ماجه فى الجهاد (٢٧٦٣)، ورواه الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦٦)، وقال: «غريب من حديث الوليد بن مسلم، عن إسماعيل بن رافع، وإسماعيل بن رافع قد ضعفه بعض أصحاب الحديث»، وضعفه الألبانى.

والثُلمَة من الشىء: موضع الكسر منه.

(٦) أبو داود فى الجهاد (٢٥١٢)، والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٧٢)، وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائى فى الكبرى (١١٠٢٩).

وصح عنه ﷺ : «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»[١] .

وصح عنه ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[٢] .

وصح عنه ﷺ : «إن النار أول ما تُسَعَّر بالعالم، والمُنفِق، والمقتول فى الجهاد إذا فعلوا ذلك لِيُقَال»[٣] .

وصح عنه : «أن من جاهد يبتغى عَرَضَ الدنيا، فلا أجر له»[٤] .

وصح عنه، أنه قال لعبد الله بن عمرو : «إن قاتلت صابرا محتسبا، بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا، بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبد الله بن عمرو، على أى حال قاتلت، أو قُتلت، بعثك الله على تلك الحال»[٥] .

فصل

وكان ﷺ يستحب القتال أول النهار، كما يستحب الخروج للسفر أوله[٦] ، فإذا لم يقاتل أول النهار، أخَّرَ القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر[٧] .

---

(١) مسلم فى الإمارة (١٩٠٢ / ١٤٦)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥٩)، وأحمد (٤ / ٣٦٩)، والمراد : أنهم إنما يفعلون ذلك رياء وليس خالصا لوجه الله عز وجل، فهم يحبون أن يقال لهم : عالِم، مُنفِق، مجاهد!!

(٢) البخارى فى الجهاد (٢٨١٠)، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٤ / ١٥٠، ١٥١) .

(٣) مسلم فى الإمارة (١٩٠٥ / ١٥٢)، والترمذى فى الزهد (٢٣٨٢) .

(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٥١٦)، وأحمد (٢ / ٣٦٦)، وابن حبان فى الإحسان (٤٦١٨)، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٨٥)، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى .

(٥) أبو داود فى الجهاد (٢٥١٩)، وضعفه الألبانى . وعَرَض الدنيا : متاعها وحطامها .

(٦) انظر : ما رُوى عن صخر بن وَدَاعة أن النبى ﷺ قال : «اللهم بارك لأمتى فى بُكورها» وأنه كان إذا بعث سَرِيَّة أو جيشًا بعثهم من أول النهار . أبو داود فى الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذى فى البيوع (٢٢١٢) . وصححها الألبانى .

(٧) انظر : ما رُوى عن النعمان بن مُقرِّن أنه قال : «شهدت رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر» . أبو داود فى الجهاد (٢٦٥٥)، والترمذى=

فصل

قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يُكْلَم أحد فى سبيل الله ـ والله أعلم من يُكْلَم فى سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة واللون لون دمٍ، والريح ريح مسك»(١).

وفى الترمذى عنه: «ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين، أو أثَرَيْن، قطرة دمعٍ من خشية الله، وقطرة دم تُهْرَاق فى سبيل الله، وأما الأثران، فأثر فى سبيل الله، وأثر فى فريضة من فرائض الله»(٢).

وصح عنه ﷺ أن: «ما من عبد يموت له عند الله شىء يَسُرُّه أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد؛ لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى»، وفى لفظ: «فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»(٣).

وقال لأم حارثة [بن](٤) النعمان، وقد قتل ابنها معه يوم بدر، فسألته أين هو؟ قال: «إنه فى الفردوس الأعلى»(٥).

=فى السير (١٦١٣)، وصححه الألبانى. وفى رواية أيضا عنه: «... شهدت القتال مع رسول الله ﷺ كان إذا لم يقاتل فى أول النهار، انتظر حتى تهب الأرواح، ونحضر الصلوات». البخارى فى الجزية والموادعة (٣١٦٠).

(١) البخارى فى الذبائح والصيد (٥٥٣٣)، ومسلم فى الإمارة (١٨٧٦ / ١٠٣).
قوله: «يُكْلَم»: أى: يُجرَح، وأصل الكَلْم: الجَرْح.

(٢) الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦٩)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه الألبانى.

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٥)، ومسلم فى الإمارة (١٨٧٧ / ١٠٩) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦١)، والنسائى فى الجهاد (٣١٥٩).

(٤) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٥) البخارى فى الجهاد (٢٨٠٩).

وقال ﷺ: «[إن][(١)] أرواح الشهداء فى جوف طير خُضْر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فَاطَّلَعَ إليهم ربك اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أى شىء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث شئنا،ففعل بهم ذلك ثلاث مرات،فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا. قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا[(٢)] فى أجسادنا حتى نُقْتَلَ فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكُوا»[(٣)].

وقال: «إن للشهيد عند الله [خصالا][(٤)]: أن يغفر له فى أول دَفْقَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويُشفع فى سبعين إنسانا من أقاربه»[(٥)] ذكره أحمد وصححه الترمذى.

وقال ﷺ لجابر: «ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟» قال: بلى. قال: «ما كَلَّم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كِفَاحًا، فقال: يا عبدى، تَمَنَّ علىَّ أُعطِك. قال: يا رب، تحيينى، فأقتل فيك ثانية، قال: إنه سبق منى: «أنهم إليها لا يرجعون» قال: يا رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران][(٦)].

---

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) فى ق: «ترد إلى أرواحنا»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٣) مسلم فى الإمارة (١٨٨٧ / ١٢١)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠١١)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٠١).

(٤) من خ، وفى ب: «ست خصال».

(٥) أحمد (٤ / ١٣١)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٦٣)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وصححه الألبانى.

(٦) الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠١٠)، وقال: «حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٠٠)، وحسنه الألبانى.

ومعنى قوله: «كِفاحًا»: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

وقال ﷺ : «لما أصيب إخوانكم بأُحُدٍ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خُضْر تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مَقِيلِهِم . قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا يَنْكُلوا عن الحرب، فقال الله ـ عز وجل : أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾»[(١)] .

وفى المسند مرفوعا : «الشهداء على بَارِق نهر بباب الجنة فى قُبَّةٍ خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية»[(٢)] .

وقال : «لا تجف الأرض من دم الشهيد حتى تبتدره زوجتاه كأنهما طَيْرَان طلبا[(٣)] فَصِيليهما ببَرَاح من الأرض، بيد كل واحدة منهما حُلَّة خير من الدنيا وما فيها»[(٤)] .

وفى المسند[(٥)] ، والنسائى مرفوعا : «لأن أقتل فى سبيل الله أحب إلى من أن يكون لى أهل المَدَر والوَبَر»[(٦)] .

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٠)، وأحمد (١ / ٢٦٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٣٨٨) : «إسناده صحيح»، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٢٩٧، ٢٩٨)، وقال : «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد (١ / ٢٢٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٣٩٠) : «إسناده صحيح» .

(٣) فى خ: «أضلتا» ، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٤) ابن ماجه فى الجهاد (٢٧٩٨)، وأحمد (٢ / ٢٩٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٤٢) : «إسناده صحيح» .

والفَصِيل يطلق ـ فى الأصل ـ على ولد الناقة؛ لأنه يُفصل عن أمه وقد يطلق على كل ولد يفصل عن أمه . والبراح من الأرض : ما ظهر منها .

(٥) فى المطبوع : « وفى المستدرك » ، وما أثبتناه من النسخ المخطوطة . ولم ينتبه إلى ذلك مخرجو النسخ المطبوعة ، مع أنهم لم يخرجوه إلا من المسند وسنن النسائى !! .

(٦) النسائى فى الجهاد (٣١٥٣)، وأحمد (٤ / ٢١٦)، وصححه الألبانى .

أهل المَدَر : هم أهل القُرى والأمصار، واحدتها : مَدَرة . =

وفيهما: «ما يجد الشهيد من القتل، إلا كما يجد أحدكم من [مَسِّ][(١)] القرصة»[(٢)].

وفى السنن: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته»[(٣)].

وفى المسند: «أفضل الشهداء الذين إن يلقوا فى الصف لا يلتفتون حتى يقتلوا، أولئك يَتَلَبَّطُون فى الغرف العلا من الجنة، ويضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد فى الدنيا فلا حساب عليه»[(٤)].

وفيه: «الشهداء أربعة[(٥)]: رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك الذى يرفع الناس إليه أعناقهم» فرفع رسول الله ﷺ رأسه حتى وقعت قلنسوته، ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو وكأنما يضرب[(٦)] جلده بشوك الطَّلْحِ، أتاه سَهْمُ غَرْبٍ فقتله هو فى الدرجة الثانية، ورجل مؤمن جيد الإيمان خلط عملا صالحا وآخر سيئا، لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك فى الدرجة الثالثة، ورجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافا كثيرا، لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذلك فى الدرجة الرابعة»[(٧)].

وفى المسند، و صحيح ابن حبان: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بماله ونفسه

= وأهل الوَبَر: هم أهل البادية.

(١) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٢) النسائى فى الجهاد (٣١٦١)، وأحمد (٢ / ٢٩٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٤٠): «إسناده صحيح».

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٢)، وصححه الألبانى.

(٤) أحمد (٥ / ٢٨٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٢٩٥): «رواه أحمد وأبو يعلى ... والطبرانى فى الكبير والأوسط بنحوهن ورجال أحمد وأبى يعلى ثقات». وقوله: «يَتَلَبَّطون»: أى يتمرّغون.

(٥) فى خ، ق: «ثلاثة»، وما أثبتناه من ك.

(٦) فى ق: «يصدف»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٧) أحمد (١ / ٢٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥٠): «إسناده حسن»، ورواه الترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٤)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن دينار»، وضعفه الألبانى. وقوله: «سَهْمُ غَرْب»: أى لا يُعرف راميه.

فى سبيل الله، حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل، فذاك[١] الشهيد المُمْتَحَن فى خيمة[٢] الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة.

ورجل مؤمن فَرِقَ على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، حتى إذا لقى العدو قاتل حتى يقتل، [فتلك][٣] مُمَصْمِصَة، مَحَتْ[٤] ذنوبه وخطاياه، إن السيف مَحَّاءُ الخطايا، وأدخل من أى أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض.

ورجل منافق جاهد بنفسه وماله، حتى إذا لقى العدو قاتل فى سبيل الله حتى يقتل، فإن ذلك فى النار، إن السيف لا يمحو النفاق»[٥].

وصح عنه ﷺ: «لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا»[٦].

وسئل ﷺ: أى الجهاد أفضل؟ فقال: «من جاهد المشركين بماله ونفسه»، قيل: فأى القتل أشرف؟ قال: «من أُهْرِيقَ دمه، وعُقِرَ جواده فى [سبيل الله][٧]»[٨].

وفى سنن ابن ماجه: «إن من أعظم الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر» وهو لأحمد والنسائى مرسلا[٩].

---

(١) فى خ: «فذلك»، وما أثبتناه من ق، ك.
(٢) فى ب: «جنة»، وفى خ: «رحمة».
(٣) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.
(٤) فى ق: «تحت»، وما أثبتناه من خ، ك.
(٥) أحمد (٤ / ١٨٥)، وصححه ابن حبان فى الإحسان (٤٦٤٤).
و«الشهيد الممتحن»: هو المُصَفَّى المُهَذَّب. يقال: مَحَنتُ الفضّة: إذا صفيتها وخلصتها بالنار.
وقوله: «مُمَصمصة»: أى مُطهِّرة من دنس الخطايا.
(٦) مسلم فى الإمارة (١٨٩١ / ١٣٠)، وأبو داود فى الجهاد (٢٤٩٥).
(٧) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.
(٨) أبو داود فى الصلاة (١٤٤٩)، والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٦)، والدارمى فى الصلاة (١٤٢٤)، وصححه الألبانى.
قلت: قوله: «فأى القتل أشرف» هو فى المطبوع: «فأى القتل أفضل»، والصواب ما أثبتناه من النسخ المخطوطة، وهو ما وافق مصادر التخريج. ولم يشر إلى ذلك معلقو النسخ المطبوعة!!
(٩) ابن ماجه فى الفتن (٤٠١١)، وصححه الألبانى، والنسائى فى البيعة (٤٢٠٩)، وأحمد (٤/ ٣١٥).

وصح عنه : «أنه لا تزال طائفة من أمته يقاتلون على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»[١] وفى لفظ : «حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[٢].

فصل

وكان ﷺ يبايع أصحابه فى الحرب على ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد، والتزام طاعة الله ورسوله، وبايع نفرا من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا .

وكان السوط يسقط من يد أحدهم، فينزل عن دابته يأخذه، ولا يقول لأحد : «ناولنى إياه»[٣].

وكان يشاور أصحابه فى أمر الجهاد، وأمر لقاء العدو، وتخير المنازل .

وفى المسند[٤] عن أبى هريرة : ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[٥].

وكان يتخلف فى ساقتهم فى المسير، فَيُزْجِى الضعيف، ويردف المنقطع.

وكان أرفق الناس بهم فى السير[٦].

---

(١) البخارى فى المناقب (٣٦٤١)، ومسلم فى الإمارة (١٩٢٤ / ١٧٦) .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٤٨٤)، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم فى الزكاة (١٠٤٣ / ١٠٨)، وأبو داود فى الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٦٧) .

(٤) فى المطبوع : « المستدرك » وهو خطأ . ولذلك لم تخرجه النسخ المطبوعة؛ لأن الحديث عند أحمد وليس فى المستدرك .

(٥) أحمد (٤/ ٣٢٨) ، والترمذى فى الجهاد (١٧١٤)، وقال : «حديث حسن»، والبيهقى فى الكبرى (١٠ / ١٠٩)، وضعفه الألبانى .

(٦) أبو داود فى الجهاد (٢٦٣٩)، وصححه الألبانى .

وكان ﷺ إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها[١] فيقول ـ مثلا ـ إذا أراد غزوة خيبر : «كيف طريق نجد ومياهها، ومن بها من العدو»، ونحو ذلك، وكان ﷺ يقول : «الحرب خَدْعَة»[٢] .

وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه، ويُطْلِع الطلائع، ويبث الحرس[٣] .

وكان إذا لقى عدوه، وقف ودعا، واستنصر الله، وأكثر هو أصحابه من ذكر الله، وخفضوا أصواتهم[٤] .

وكان يرتب الجيش والمقاتلة، ويجعل فى كل جنبة كفئا لها .

وكان يبارز بين يديه بأمره .

وكان يلبس للحرب عُدَّتَه، وربما ظاهر بين درعين[٥] .

وكان له الألوية والرايات[٦] .

وكان إذا ظهر على قوم أقام بعَرْصَتِهم ثلاثا، ثم قفل[٧] .

وكان إذا أراد أن يُغِير انتظر، فإن سمع فى الحى مؤذنا لم يُغِرْ وإلا أغار[٨] .

وكان ربما بَيَّتَ عدوه، وربما فاجأهم نهارا[٩] .

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩٤٧)، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩ / ٥٤) .
(٢) البخارى فى الجهاد (٣٠٣٠)، ومسلم فى الجهاد (١٧٣٩ / ١٧) .
(٣) البخارى فى الجهاد (٢٨٨٥)، ومسلم فى الإمارة (١٩٠١ / ١٤٥)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠١) .
(٤) البخارى فى المغازى (٤١١٥)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٦٣ / ٥٨) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٥٦) .
(٥، ٦) البخارى فى المغازى (٤٢٨٠)، وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٠ ـ ٢٥٩٣)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٠٦) .
(٧) البخارى فى الجهاد (٣٠٦٥)، وأبو داود فى الجهاد (٢٦٩٥) .
والعَرْصَة : كل بقعة بين الدُّور واسعة ليس فيها بناء .
(٨) البخارى فى الأذان (٦١٠)، ومسلم فى الصلاة (٣٨٢ / ١٠) .
(٩) البخارى فى الجهاد (٣٠١٢)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٥ / ٢٦)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٣٠ / ١) .

وكان ﷺ يحب الخروج يوم الخميس [١] بكرة النهار .

وكان العسكر إذا نزل انضم بعضه إلى بعض، حتى لو بسط عليهم كساء لعمهم [٢] .

وكان يرتب الصفوف [٣]، ويعبئهم عند القتال بيده ويقول : تقدم يا فلان تأخر يا فلان [٤] .

وكان يستحب للرجل منهم أن يقاتل تحت راية قومه .

وكان إذا لقى العدو يقول : «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم » [٥]، وربما قال: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾[القمر] [٦] .

وكان يقول : «اللهم أنزل نصرك» .

وكان يقول : «اللهم أنت عَضُدِى، وأنت نصيرى، وبك أقاتل» [٧] .

وكان إذا اشتد البأس، وحمى الحرب، وقصده العدو، يُعْلِمُ بنفسه ويقول :

«أنا النبى لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلب» [٨]

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩٤٩)، وأبو داود فى الجهاد (٢٦٠٥)، والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٧٨٧) .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٦٢٨)، وأحمد (٤ / ١٩٣) . وصححه الألبانى .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٩٣٠)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٦ / ٧٨) .

(٤) البخارى فى الجهاد (٢٩٣٢)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٢ / ٢١) .

(٥) البخارى فى المغازى (٣٩٥٣)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٥٥٨) .

(٦) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٦ / ٧٩) .

(٧) أبو داود فى الجهاد (٢٦٣٢)، والترمذى فى الدعوات (٣٥٨٤) وقال : «حسن غريب»، وأحمد (٣/ ١٨٤)، وصححه الألبانى .

(٨) البخارى فى المغازى (٤٣١٥ ـ ٤٣١٧)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٦ / ٧٨) .

وكان البأس إذا اشتد اتقوا به ﷺ، وكان أقربهم إلى العدو[١].

وكان يجعل لأصحابه شعارا فى الحرب يعرفون به إذا تكلموا، وكان شعارهم مرة: «أَمِتْ أَمِتْ[٢]، ومرة: يا منصور[٣]، ومرة: «حم لا ينصرون»[٤].

وكان يلبس الدرع والخوذة، ويتقلد السيف، ويحمل الرمح والقوس العربية، وكان يترس بالترس.

وكان يحب الخيلاء فى الحرب، وقال: «إن منها ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه[٥] الله، فأما الخيلاء التى يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند اللقاء، واختياله عند الصدقة، وأما التى يبغض الله ـ عز وجل ـ فاختياله فى البَغْيِ والفَخْر»[٦].

وقاتل مرة بالمنجنيق نصبه على أهل الطائف.

وكان ينهى عن قتل النساء والولدان[٧].

وكان ينظر فى المقاتلة فمن رآه أنبت قتله، ومن لم ينبت استحياه[٨].

وكان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله، ويقول: «سيروا بسم الله، وفى سبيل الله،

---

(١) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٦ / ٧٩).

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٩٦)، وأحمد (٤ / ٤٦)، والحاكم فى المستدرك (٢ / ١٠٧، ١٠٨)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وقال الذهبى: «على شرط البخارى ومسلم».

(٣) النهاية فى غريب الحديث (٤ / ٣٧١)، وأبو الشيخ فى أخلاق النبى ص (١٥٥) بإسناد ضعيف.

(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٥٩٧)، والترمذى فى الجهاد (١٦٨٢)، والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٥١ ـ ١٠٤٥٤) وصححه الألبانى.

(٥) فى ق: «يبغض»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٦) أبو داود فى الجهاد (٢٦٥٩)، والنسائى فى الزكاة (٢٥٥٨)، وابن حبان فى الموارد (١٦٦٦)، وصححه الألبانى.

(٧) البخارى فى الجهاد (٣٠١٥)، و مسلم فى الجهاد والسير (١٧٤٤ / ٢٤).

(٨) أبو داود فى الحدود (٤٤٠٤)، والترمذى فى السير (١٥٨٤)، والنسائى فى الطلاق (٣٤٢٩)، وابن ماجه فى الحدود (٢٥٤١)، وصححه الألبانى. والمراد بالإنبات هنا: ظهور شعر العانة.

قاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا»[١].

وكان ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو[٢].

وكان يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال، إما إلى الإسلام والهجرة، أو [إلى][٣] الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين، ليس لهم فى الفيء نصيب، أو بذل الجزية، فأيها أجابوا إليه قبل منهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم[٤].

وكان إذا ظفر بعدوه أمر مناديا فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقى، فوضعه حيث أراه الله، وأمره[٥] به من مصالح الإسلام، ثم يَرْضَخ من الباقى لمن لا سهم له من [النساء][٦] والصبيان والعبيد، ثم قسم الباقى بالسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم[٧]. هذا هو الصحيح الثابت[٨] عنه.

وكان يُنَفِّلُ من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة، وقيل: بل كان النفل من الخمس، وقيل ـ وهو أضعف الأقوال: بل كان من خمس الخمس.

وجمع لسلمة بن الأكوع فى بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه أربعة[٩] أسهم لعظم غنائه فى تلك الغزوة[١٠].

---

(١) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٣١ / ٣)، وأبو داود فى الجهاد (٢٦١٣)، والترمذى فى السير (١٦١٧)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٥٧).

(٢) البخارى فى الجهاد (٢٩٩٠)، ومسلم فى الإمارة (١٨٦٩ / ٩٢).

(٣) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٤) مسلم فى الجهاد والسير (١٧٣١ / ٣).

(٥) فى خ: «أمر»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٦) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٧) البخارى فى المغازى (٤٢٢٨)، و مسلم فى الجهاد والسير (١٧٦٢ / ٥٧).

(٨) فى ق: «الثبت»، وما أثبتناه من خ، ك.

(٩) فى خ: «خمسة»، وما أثبتناه من ق، ك.

(١٠) مسلم فى الجهاد والسير (١٨٠٧ / ١٣٢)، وأبو داود فى الجهاد (٢٧٥٢).

وكان يسوى بين الضعيف والقوى فى القسمة ما عدا النفل [١].

وكان إذا أغار فى أرض العدو وبعث سرية بين يديه، فما غنمت أخرج خمسه، ونفلها ربع الباقى، وقسم الباقى بينها وبين سائر الجيش، وإذا رجع فعل ذلك، ونفلها الثلث [٢]، ومع ذلك فكان يكره النفل، ويقول: «لِيَرُدَّ قَوِيُّ المؤمنين على ضعيفهم» [٣].

وكان له ﷺ سهم من الغنيمة يدعى الصَّفِيَّ، إن شاء عبدا، [وإن شاء أمة] [٤]، وإن شاء فرسا، يختاره قبل الخمس [٥].

قالت عائشة: وكانت صفية من الصَّفِيِّ [٦]. رواه أبو داود، ولهذا [جاء] [٧] فى كتابه إلى بنى زهير بن أقيش: «إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى ﷺ، وسهم الصفى، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله» [٨].

وكان سيفه ذو الفقار من الصفى [٩].

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٧٣٧ ـ ٢٧٣٩)، وأحمد (٥ / ٣٢٣، ٣٢٤)، وصححه الألبانى.

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٧٤٩، ٢٧٥٠)، وابن حبان فى الموارد (١٦٧٢)، وصححه الألبانى وله شاهد عند الترمذى فى السير (١٥٦١)، وقال: «حسن»، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٥٢)، وأحمد (٥/ ٣١٩) من حديث عبادة بن الصامت، وقال الشيخ الألبانى: «ضعيف الإسناد».

(٣) أحمد (٥، ٣٢٤)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٩٢): «ورجال أحمد ثقات».

(٤) ليست فى ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٥) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٩١)، والنسائى فى قسم الفىء (٤١٤٥)، وضعفه الألبانى، وقال: «ضعيف الإسناد».

(٦) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٩٤)، وابن حبان فى الموارد (٢٢٤٧).

(٧) ليست فى خ، ك، وما أثبتناه من ق.

(٨) أبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٩٩)، والنسائى فى قسم الفىء (٤١٤٦)، وأحمد (٥/ ٧٧، ٧٨)، وصححه الألبانى.

(٩) الترمذى فى السير (١٥٦١)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٠٨)، وأحمد (١ / ٢٧١)، وقال الألبانى: «حسن الإسناد».

وكان يسهم لمن غاب عن الوقعة لمصلحة المسلمين، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر، ولم يحضرها لمكان تمريضه لامرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ فقال : «إن عثمان انطلق فى حاجة الله وحاجة رسوله» فضرب له بسهمه وأجره[١].

وكانوا يشترون معه فى الغزو ويبيعون وهو يراهم ولا ينهاهم، وأخبره رجل أنه ربح ربحا لم يربح مثله أحد فقال : «ما هو؟» قال : ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاثمائة أوقية، فقال : «أنا أنبئك بخير رجل رَبِحَ» قال : ما هو يا رسول الله؟ قال : «ركعتين بعد الصلاة»[٢].

وكانوا يستأجرون الأجراءللغزو على نوعين :

أحدهما : أن يخرج الرجل، ويستأجر من يخدمه فى سفره .

والثانى : أن يستأجر من ماله من يخرج فى الجهاد ويسمون ذلك الجعائل، وفيها قال النبى ﷺ «للغازى أجره، وللجاعل أجره وأجر الغازى»[٣].

وكانوا يتشاركون فى الغنيمة على نوعين ـ أيضا :

أحدهما : شركة الأبدان .

والثانى : أن يدفع الرجل بعيره إلى الرجل، أو فرسه يغزو عليه على النصف مما يغنم، حتى ربما اقتسما السهم، فأصاب أحدهما قِدْحَه، والآخر نَصْلَه وريشه .

وقال ابن مسعود : اشتركت أنا وعمار وسعد فيما نصيب يوم بدر، فجاء سعد بأسيرين، ولم أجئ أنا وعمار بشىء[٤].

---

(١)أبو داود فى الجهاد (٢٧٢٦)، وصححه الألبانى .

(٢)أبو داود فى الجهاد (٢٧٨٥)، وضعفه الألبانى .

(٣)أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٦)، وأحمد (٢ / ١٧٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٦٢٤) : «إسناده صحيح» .

(٤)أبو داود فى البيوع (٣٣٨٨)، والنسائى فى الأيمان والنذور (٣٩٣٧)، وابن ماجه فى التجارات (٢٢٨٨)، وضعفه الألبانى .

وكان يبعث السرية فرسانا تارة، ورجالة أخرى، وكان لا يسهم لمن قدم من المدد بعد الفتح [١].

فصل

وكان يعطى سهم ذى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب دون إخوتهم من بنى عبد شمس وبنى نوفل، وقال : «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد» وشبك بين أصابعه وقال : «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام» [٢].

فصل

وكان المسلمون يصيبون معه فى مغازيهم العسل، والعنب والطعام، فيأكلونه ولا يرفعونه فى المغانم [٣].

قال ابن عمر : إن جيشا غنموا فى زمان رسول الله ﷺ طعاما وعسلا، فلم يؤخذ منهم الخمس . ذكره أبو داود [٤].

وتفرد عبد الله بن مُغَفَّل يوم خيبر بجراب شَحْم، وقال : لا أعطى اليوم أحدا من هذا شيئا، فسمعه رسول الله ﷺ فتبسم ولم يقل له شيئا [٥].

وقيل لابن أبى أوْفَى : هل كنتم تخمسون الطعام فى عهد رسول الله ﷺ؟ فقال :

---

(١) البخارى فى المغازى (٤٢٣٨) .

(٢) البخارى فى فرض الخمس (٣١٤٠)، وأبو داود فى الخراج والإمارة (٢٩٧٩، ٢٩٨٠)، والأيمان فى قسم الفىء (٤١٣٧) .

(٣) البخارى فى فرض الخمس (٣١٥٤) .

(٤) أبو داود فى الجهاد (٢٧٠١)، وصححه الألبانى .

(٥) البخارى فى فرض الخمس (٣١٥٣)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٢ / ٧٢) .

أصبنا طعاما يوم خيبر، فكان الرجل يجيء فيأخذ منه مقدار ما يكفيه ثم ينصرف[١].

وقال بعض الصحابة: كنا نأكل الجوز فى الغزو ولا نقسمه، حتى إن كنا لنرجع إلى رحالنا وأجربتنا[٢] منه مملوءة[٣].

فصل

وكان ينهى فى مغازيه عن النُّهْبَة والمثلة وقال: «من انتهب نهبة فليس منا»[٤].

وأمر بالقدور التى طبخت من النهبى[٥] فأُكْفِئَتْ[٦].

وذكر أبو داود، عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة وجَهْدٌ، وأصابوا غنما، فانتهبوها، وإن قدورنا لتغلى، إذ جاء رسول الله ﷺ يمشى[٧] على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال: «إن النُّهْبَة ليست بأحل من الميتة»، أو «إن الميتة ليست بأحل من النهبة»[٨].

وكان ينهى أن يركب الرجل دابة من الفىء، حتى إذا أعْجَفَها ردها فيه، وأن يلبس ثوبا من الفىء حتى إذا أخْلَقَه رده فيه[٩]، ولم يمنع من الانتفاع به حال الحرب.

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٧٠٤)، وصححه الألبانى.
(٢) فى ق: «أجربنا»، وما أثبتناه من خ، ك.
(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٧٠٦)، وضعفه الألبانى.
(٤) الترمذى فى السير (١٦٠١)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وأحمد (٣/ ١٤٠)، وصححه الألبانى.
(٥) فى ق: «النهب»، وما أثبتناه من خ، ك.
(٦) البخارى فى الشركة (٢٤٨٨)، ومسلم فى الأضاحى (١٩٦٨/ ٢١).
(٧) فى خ: «يتكئ»، وما أثبتناه من ق، ك.
(٨) أبو داود فى الجهاد (٢٧٠٥)، وصححه الألبانى.
(٩) أبو داود فى الجهاد (٢٧٠٨)، والدارمى فى السير (٢٤٨٨)، وأحمد (٤/ ١٠٨)، وصححه الألبانى. وقوله: «أعجفها» أى: أهزلها وأضعفها. و«أخلقه» أى: أبلاه وقطّعه.

فصل

وكان يشدد فى الغلول جدا، ويقول : «هو عار ونار وشَنَار على أهله يوم القيامة»[(١)].

ولما أصيب غلامه مِدْعَم قال بعض الصحابة : هنيئا له الجنة، فقال : «كلا والذى نفسى بيده، إن الشَّمْلَة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصِبْها المقاسم لتشتعل عليه نارا»، فجاء رجل بِشِرَاك أو شراكين لما سمع ذلك فقال : «شراك أو شراكان من نار»[(٢)].

وقال أبو هريرة : قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، فقال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغَاء، على رقبته فرس له حَمْحَمَة، يقول : يا رسول الله، أغثنى، فأقول : لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، على رقبته صَامِت، فيقول : يا رسول الله، أغثنى، فأقول : لا أملك لك [من الله][(٣)] شيئا، قد أبلغتك، على رقبته رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقول : يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك»[(٤)].

وقال لمن كان على ثَقَلِه وقد مات : «هو فى النار»، فذهبوا ينظرون، فوجدوا عباءة قد غلَّها[(٥)].

---

(١) النسائى فى الهبة (٣٦٨٨)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٥٠)، وأحمد (٢ / ١٨٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٧٢٩) : «إسناده صحيح» . والشَّنَار : العيب والعار، وقيل : هو العيب الذى فيه عار .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٢٣٤)، ومسلم فى الإيمان (١١٥ / ١٨٣) .

(٣) من مصادر التخريج .

(٤) البخارى فى الجهاد (٣٠٧٣)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٨٣١ / ٢٤) . والثُّغَاء : صوت الشاة . والحَمْحَمة : صوت الفرس عندما يعلف وهو دون صهيله . والصَّامِت : هو الذهب والفضة . و«رقاع تخفق» : أى تضطرب .

(٥) البخارى فى الجهاد (٣٠٧٤)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٤٩)، وأحمد (٢ / ١٦٠) .

وقالوا فى بعض غزواتهم : فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى مروا على رجل فقالوا : وفلان شهيد، فقال : «كلا، إنى رأيته فى النار فى بُرْدَة غَلَّها أو عباءة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اذهب يا بن الخطاب، اذهب فناد فى الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[(١)].

وتوفى رجل يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال : «صلوا على صاحبكم»، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال : «إن صاحبكم غَلَّ فى سبيل الله [شيئا][(٢)]»، ففتشوا متاعه فوجدوا خَرَزا من خرز يهود لا يساوى درهمين[(٣)].

وكان إذا أصاب غنيمة، أمر بلالا فنادى فى الناس، فيجيؤون بغنائمهم[(٤)]، فيخمسها ويقسمها، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شَعْر فقال [رسول الله ﷺ][(٥)]: «سمعت بلالا نادى ثلاثا؟» قال:نعم، قال :«فما منعك أن تجيء به؟» فاعتذر فقال : «كن أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك»[(٦)].

فصل

وأمر بتحريق متاع الغال وضربه، وحرقه الخليفتان الراشدان بعده[(٧)].

فقيل : هذا منسوخ بسائر الأحاديث التى ذكرت، فإنه لم يجئ التحريق فى شىء

---

(١) مسلم فى الإيمان (١١٤ / ١٨٢)، وأحمد (١ / ٣٠).

(٢) من مصادر التخريج.

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٧١٠)، والنسائى فى الجنائز (١٩٥٩)، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٤٨)، ومالك فى الموطأ فى الجهاد (٢ / ٤٥٨) (٢٣) وأحمد (٤ / ١١٤)، وضعفه الألبانى.

(٤) فى ق: «مغانمهم» ، وما أثبتناه من خ ، ك.

(٥) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من خ.

(٦) أبو داود فى الجهاد (٢٧١٢)، وأحمد (٢ / ٢١٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٩٩٦) : «إسناده صحيح»، وصححه الحاكم فى المستدرك (٢ / ١٢٧)، ووافقه الذهبى.

(٧) أبو داود فى الجهاد (٢٧١٣)، وضعفه الألبانى.

منها .

وقيل ـ وهو الصواب: إن هذا من باب التعزير والعقوبات المالية الراجعة إلى اجتهاد الأئمة بحسب المصلحة، فإنه حرق وترك، وكذلك خلفاؤه من بعده، ونظير هذا قتل شارب الخمر فى الثالثة أو الرابعة[1] فليس بحد ولا منسوخ، وإنما هو تعزير يتعلق باجتهاد الإمام .

(١) حديث قتل شارب الخمر فى الرابعة، رواه خمسة من الصحابة وهم :
حديث معاوية : أخرجه أبو داود فى الحدود (٤٤٨٢)، والترمذى فى الحدود (١٤٤٤)، وابن ماجه فى الحدود (٢٥٧٣). وقال الألبانى : «حسن صحيح» .
وحديث أبى هريرة : أخرجه أبو داود فى الحدود (٤٤٨٤)، والنسائى فى الأشربة (٥٦٦٢)، وابن ماجه فى الحدود (٢٥٧٢)، وأحمد (٢ / ٥٠٤) . وقال الألبانى : «حسن صحيح» .
وحديث عبد الله بن عمر : أخرجه أبو داود فى الحدود (٤٤٨٣)، والنسائى فى الأشربة (٥٦٦١)، وضعفه الألبانى .
وحديث عبد الله بن عمرو : أخرجه أحمد (٢ / ١٦٦) وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٥٥٣) : «إسناده صحيح»، والحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٧٢)، وسكت عنه هو والذهبى .
وحديث قبيصة بن ذؤيب : أخرجه أبو داود فى الحدود (٤٤٨٥)، والبيهقى فى الكبرى فى الأشربة والحد فيها (٨ / ٣١٤)، وقال الألبانى : «ضعيف مرسل» .

obeikandl.com